# سوتراتما

عنـوان الكتـاب: سـ ـوتراتما
الموضـوع: روايـة
التـأليـف: عمـرو يحيـى
إخـراج فنـي: عمـرو سـالم سـواح
تصـميم الغـلاف: إسـلام مجاهـد
رقـم الإيـداع: 2019/26900
التـرقيم الـدولي: 978-977-6639-76-8
الناشـر: دار تويتة للنشر والتوزيع
www.facebook.com/Tweetforpublish
tweetpublishing2017@gmail.com
٧ش محمد أبوالعطا- محطة العريش-فيصل- الجيزة
رئيس مجلس الإدارة: م/ أحمد عبد العزيز
المدير العام: أ/ رشا العمري
01017799799
01225762066

#غرّد_للعالم

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

# سوتراتما

رواية

عمرو يحيى

# إهداء

**حين تتساوى كل الخيارات**

**وتبقى كل الألوان محايدة**

**تظلين أنتي تنثرين الضياء في حياتي**

**وترسمين بأنفاسك ألوان طيف لا تغيب**

**زوجتي وحب عمري**

**أروع ما حدث في دنيتي**

**أحبك**

**زهرتا حياتي**

**جمهوري الصغير الذي يملأ الأفق في عيني**

**ويفوح شذاه بين كلماتي وعلى أعتاب صفحاتي**

**ابنتاي .. مهجة قلبي وروح سعادتي**

**أحبكما**

قد تتصل أحياناً

وقد تنفصل أحياناً أخرى

وتبقى بينهما

أبواب. . ما كان لها أن تُفتح

وعوالم ليس لنا أن نطأها

# الفصل الأول

كان يوسف ياسين جالسًا في مكتبه مستغرقًا في قراءة أحد التقارير.. المكتب أنيق ومريح للأعصاب، اختار أثاثه وألوانه بنفسه وباهتمام بالغ.. الحق أن كلمة مكتب ليست الوصف الأمثل.. طاولة المكتب نفسها لا تحتل مساحة كبيرة في صدر الغرفة وقد انسحبت بحجمها الصغير تاركةً النصيب الأكبر لباقي قطع الأثاث.. على اليمين تجلس بنعومة أريكة وثيرة على حرف "إل" باللغة الإنجليزية ينسجم لونها البني الفاتح مع لون الستائر من خلفها والجدران ذات اللون الأخضر الهادئ.. ازدان ذلك الجدار المقابل للأريكة بلوحة لفراشات تحلق بعيدًا نحو أفق تغيب شمسه.. في الزاوية مزهرية طويلة بها نباتات ذات أعناق خضراء باسقة تنتهي بزهور صفراء صغيرة.. وفي الزاوية المقابلة تقف أباجورة رشيقة ترسل ضوءها أسفل منها ليرسم على الجدار دائرة من الضوء الناعم المنسدل حتى سجادة زيتية اللون خالية من النقوش.. فوقها طاولة ضئيلة خالية ..

ثم.. موسيقى ناعمة هادئة تتمايل في وقار

لم ينتبه لصوت الطرق على الباب إلا بعد عدة مرات:

- أدخل

لم يرفع عينيه عن التقرير..

دخلت شابة متوسطة الطول تميل للبدانة ترتدي زيًا خاصًا بالممرضات زهري اللون .. لكنه أنيقًا ومختلفًا عن ذلك الذي يرتدينه ممرضات المستشفيات

الحكومية.. وقفت أمام مكتبه في صمت بانتظار أن يرفع رأسه لكنه قال بضجر دون أن ينظر إليها:

- اخلصي يا فايزة.. هتخليكى واقفة كده كتير.

تنهدت فايزة وقالت بخيبة أمل ممتزجة بشيء من الدلال المبتذل:

- لو عليه أنا.. أخليني واقفة للسنة الجاية.. بس حضرتك تؤمر!

رفع رأسه وعدل نظارته الطبية الأنيقة وقال بضيق:

- شكلك رايقة يا فايزة .. اخلصي قولي في إيه مش فاضي لك..

مطت فايزة شفتيها وقالت:

- الحالة اللي حضرتك قلت لي أديها المهدئ.. مش راضي خالص ياخد الحباية وراسه وألف سيف يشوف حضرتك و..

قاطعها يوسف هو يضع التقرير على المكتب بضيق ثم يقوم من مكانه:

- طيب طيب.. يلا روحي وأنا جاي وراكي.

انصرفت فايزة بعد تردد وكأنها تريد أن تقول شيئًا أخر لكنها تراجعت حينما رأته قد أمسك هاتفه المحمول..

نظر في مجموعة طويلة من رسائل الواتساب.. تنهد بقوة ثم اتصل بأحد الأرقام، لم يطل انتظاره فمع أول جرس قام الطرف الآخر بالرد:

قال مبتسمًا:

- إيه أنتي قاعدة ماسكة التليفون؟

صمت يستمع ثم استطرد:

- طيب طيب... أهدي بس.. منا قايلك عندي تقرير حالة مهم هسهر عليه.. أيوه كنت عامل الموبايل على الصامت.. لا يا حبيبي مش علشانك أنتي طبعًا.. خلاص

بقى علشان عندي حالة لازم أشوفها.. هخلص وأكلمك.. لا مش هنسى طبعًا.. يلا باي.

أنهى المكالمة ثم عاود الاتصال برقم آخر.. انتظر قليلًا ثم قال:

- أيوه يا ماما.. ازيك يا حبيبتي.. أنا الحمد لله.. أه سارة كلمتني.. لا أطمني أنا بس عندي شوية شغل هخلصهم وجاي بإذن الله.. لا أنا خلاص اتعشيت.. ماشي.. الله يسلمك يا حبيبتي.. حاضر.. مع السلامة

أنهى المكالمة الثانية ثم خرج من الغرفة.. كانت ردهة المستشفى نظيفة ومتأنقة مثلها مثل زي فايزة.. تنتشر على جدرانها ذات الطلاء الأزرق السماوي، لوحات وبورتريهات متنوعة، كان الهدوء يغلف المكان في هذا الوقت من الليل، توجه مباشرة نحو قسم الحالات الجديدة قبل أن يصل للغرفة كان باستطاعته أن يسمع أصوات جدال دائر هناك، كانت فايزة تقول بعناد:

- بس أنا بلغت الدكتور يوسف وهو قالي أنه جاي يشوفه..

رد أحدهم الذي لم يكن غير من توقع أن يكون، دكتور هاني كمال.. زميله اللدود في المستشفى:

دكتور هاني "بغضب":

- يعني إيه دكتور يوسف جاي.. هو خلاص مفيش في المستشفى غير دكتور يوسف.. وأنا إيه قدامك؟! قرطاس لب!

كانت فايزة تهم بالرد عندما دلف يوسف للغرفة فنظرت إليه مستنجدة:

- أهو دكتور يوسف جه أهو..

التفت هاني نحو يوسف بضيق:

- أهلا بالسيادة.. يعني إيه حضرتك قايل محدش يتابع الحالة دي غيرك..

نظر له يوسف بنفاذ صبر وقال:

- مش أنا اللي قلت يا دكتور هاني.. دي أوامر دكتور رشدي.. ممكن سعادتك ترجع له لو عندك مشكلة..

قبل أن يجيب عاجله يوسف بحسم:

- دلوقتي لو معندكش مانع ياريت تتفضل علشان أشوف شغلي..

بلع هاني بضع كلمات كان يهم بقولها ونظر ليوسف بغيظ ثم خرج غاضبًا من الغرفة..

أسرعت فايزة لتغلق الباب من وراءه وهي تقول:

- أنا حاولت معاه يا دكتور والله بس هو ..

- خلاص..

قاطعها يوسف ثم التفت لرجل في العقد السادس من عمره يجلس منزويًا على أحد المقاعد الغرفة التي كانت أقرب ما تكون لغرف فندق خمس نجوم من أن تكون غرفة مستشفى.. اقترب منه يوسف بهدوء ثم جلس بجواره..

مرت بضع ثوان لم يتبادلا خلالها أي كلمة ثم أخيرًا تحدث الرجل بكلمات مرتبكة:

- أنتو ليه مش مصدقني.. ليه محدش عاوز يصدقني.. بقولكو هي قالت لي إنها جاية النهارده.. وأنا مش هنام غير لما تيجي..

ربت يوسف على كتفه وقال:

- طيب خد الدواء دلوقتي وأوعدك أول ما تيجي أنا بنفسي هاجي أصحيك..

نظر له الرجل بتردد.. ثم هز رأسه موافقًا

******

للمرة العاشرة عادت سارة للنظر في شاشة هاتفها المحمول لتتأكد أنها لم تفوت رسالة ربما تكون قد أتت من يوسف.. وضعت الهاتف جانبًا ثم حاولت التركيز في التصميم أمامها على شاشة الكمبيوتر..

كانت تشعر بضيق وتوتر لعدم اتصاله.. مدت يدها نحو كوب النسكافيه لتأخذ منه رشفة.. فوجئت أنه لم يعد هناك المزيد..

قامت بعصبية وخرجت من غرفتها متجهة نحو المطبخ..

حاولت ألا تحدث أي صوت حتى لا توقظ أمها.. مرت بصالة قد اتسعت أرجاءها لتحتوي ريسبشن وغرفة سفرة وكذلك غرفة معيشة بها "أنتريه" بديع يستقر أمامه شاشة تلفزيون كبيرة.. الأثاث لم يكن حديث لكنه يحتفظ برونقه وتم تنسيقه بعناية تنم عن ذوق رفيع.. المطبخ كان كذلك مرتب لكن على عكس قطع الأثاث في الصالة مجهزًا بأحدث الأجهزة المنزلية.. بدأت تحضر كوب آخر من النسكافيه.. وضعت الحليب على الموقد ووقفت شاردة أمامه..

- أنتي لسه صاحية يا سارة؟!

جاء صوت أمها القلق من وراءها فانتفضت سارة وهي تلتفت بجزع .. استطردت أمها:

- إيه يا حبيبتي مالك؟

تمالكت سارة أعصابها:

- أبدًا.. بس كنت فكرت حضرتك نايمة فاتخضيت مش أكتر..

ربتت أمها على كتفها وهي تنظر للحليب الذي كاد أن يغلي فبادرت سارة بإطفاء النار..

سألتها: يوسف طبعًا.. مش كده؟

هنا صاحت سارة بغضب طفولي:

- مش فاضي لي خالص يا مامي.. الصبح عنده كلية وبعد الظهر مستشفى.. ده غير رسالة الماجستير اللي مُصر يخلصها قبل ما نتجوز.. ولازم تكون عن حالة معرفش عاملة إيه وملهاش زي.. وكل ما أحاول أكلمه علشان يشوف تصميمات الشقة يقولي أنتي مهندسة ديكور وأكيد فاهمة أكتر مني..

ابتسمت لها أمها وقالت:

- معلش يا حبيبتي.. انتي لازم تكوني مقدرة ظروف شغله.. هرجع أقولك نفس الكلام اللي قلته كذا مرة قبل كده.. من الأول وأنا مكنتش مرتاحة لشغلانة دكتور نفسي دي.. بس لقيتك متمسكة بيه وهو شكله ابن ناس وبيحبك فوافقت.. المهم.. حاولي انتي تنامي دلوقتي وبلاش النسكافيه ده علشان تصحي فايقة ومتتأخريش على شغلك..

تنهدت سارة وقالت:

- حاضر يا حبيبتي.. روحي أنتي حضرتك ارتاحي وأنا شوية وهنام

******

رن جرس هاتف التليفون المحمول الخاص بالدكتور رشدي بإصرار، فاعتدل وجلس على سريره بانزعاج، التقط الهاتف وطالع بنصف عينيه الاسم الظاهر على الشاشة المضيئة في الظلام.. كان معتادًا على الاتصالات المتأخرة في أي وقت من الليل.. لكن هذه المرة كان يشعر بضيق شديد.. فالمتصل هو دكتور هاني.. وهذا لا يتصل في مثل هذا الوقت إلا لمشكلة.. لولا أن هاني ابن صديق عمره لكان فصله من العمل منذ زمن..

- ألو.. خير يا هاني.. في حاجة

صمت وبدا على وجه الامتعاض وهو يستمع ثم قال بضيق.. ثم أردف

- أيوه أنا.. أسمع يا هاني.. أنا تعبان ويدوبك كانت عيني بتروح في النوم.. الحالة دي بالذات ملكش دعوة بيها.. ليه؟! عجيبة أوي.. أنت هتحقق معايا.. امال قصدك إيه.. أنت مش شفته.. المفروض تكون عرفت ده مين.. مخدتش بالك.. أه.. طيب ابقى خد بالك بقى.. ده يا سيدي فهمي راتب.. أيوه الممثل..هو بذات نفسه.. اللي حصل بقى.. نصيبه.. سبني بقى أنام.. أما أشوفك بكره نتكلم.. يلا سلام..

******

ما أن أنهى الدكتور رشدي معه المكالمة حتى ألقى هاني بالهاتف بعنف على مكتبه، كان يتحرك يمنة ويسرة في غرفته بعصبية شديدة.. الغضب يتصاعد داخله كبركان تكاد تنسكب حممه من منخاره الذي يرتجف بعصبية.. لطالما حاول أن يثبت للدكتور رشدي أنه جدير بالثقة هو الآخر.. أنه يستطيع التعامل مع مثل هذه الحالات التي يصنفها دكتور رشدي ضمن فئة الثلاثة حروف VIP أو علية القوم كما يحب أن يطلق عليهم بسماجة.. هؤلاء الذين يأتون هنا من وقت لآخر لأسباب مختلفة.. اكتئاب.. إدمان.. اضطرابات سلوكية.. أو حتى انحرافات شاذة وغريبة.. يأتون هم بأنفسهم أو ربما يأتون بأبنائهم أو بناتهم وأحيانًا من يبحثون لهم عن ملاذ آمن.. يمكثون بعض الوقت ثم يأخذوا من التقارير ما يثبت أنهم كانوا في حالة ذهنية تحول دون التمييز وقت أن فعلوا ما قد يفعلوا ولا شك أن ما حدث لم يكن عن قصد أو تعمد..

هو.. دائم بعيدًا عن مثل هذه الحالات.. إما الدكتور رشدي بنفسه من يتعامل معها أو يوسف..

الدكتور رشدي كان يفضل يوسف منذ أن كان يُدرس لهما في الكلية.. حينها لم يكن هاني يهتم كثيرًا بهذا التفضيل.. ربما بعض المشاعر الصبيانية العابرة من وقت لآخر ليس أكثر..

لكن الآن الوضع قد صار مختلفًا..

يوسف أصبح تقريبًا هو الآمر الناهي في المستشفى بعد الدكتور رشدي.. وصار محط أنظار الجميع..

بل وصل الأمر أنه كاد يصبح ضيفًا شبه دائم في برامج القنوات الفضائية يطل من خلالها ويلقي نظرياته وفلسفاته وكأنه فرويد زمانه..

والحقيقة أن غيرته من يوسف تضرب بجذورها في عمق علاقتهما منذ أن عرفه بالكلية، كان يوسف أكثر وسامة ومحط إعجاب كل من حوله، متميزًا في كل شيء تقريبًا، بينما هو على الرغم من سيارته الحديثة وبذخه المستمر لم يكن محاطًا سوى بمجموعة من المنتفعين.. المصلحجية وكدابين الزفة.. لكن أيضًا هذه المشاعر بقت غيرة صبيانية ليس أكثر حتى جاء السبب الأكبر لتأصل وتعاظم حقده على يوسف...

سبب يتعلق بابنة الدكتور رشدي.. الدكتورة غادة..

كانت زميلتهما في الكلية.. تصغرهما بثلاث سنين.. ومنذ أول يوم رآها هاني وقع في حبها.. ورغم أن أبيه والدكتور رشدي صديقين حميمين.. إلا أنه لم يكن قد سبق له أن التقى بها من قبل.. كانت تعيش مع أمها طليقة الدكتور رشدي في كندا.. وبعد وفاة والدتها عادت إلى مصر بإلحاح من الدكتور رشدي.. حاول هو التقرب منها والتودد إليها بلا فائدة..

والسبب كما صرحت له بنفسها بعد أن ملت من محاولاته.. إنها تحب يوسف..

ورغم مواجهتها له بتلك الحقيقة.. ألح هو على أبيه أن يتقدم لخطبتها.. تفاجأت حين رأته مع أبيه يزورهما في الفيلا.. بالطبع رفضت.. وشرحت لوالدها الدكتور رشدي وبكل صراحة أسباب رفضها..

الدكتور رشدي بدوره نقل ما قالته لصديق عمره والذي هو والد هاني.. والد هاني تفاجأ بما سمع ووبخه توبيخًا شديدًا ووصفه بصفات أقلها أنه منعدم الرجولة والمرؤة..

وبالرغم من أن يوسف لم يكن يبادلها تلك المشاعر بل حتى أنه ارتبط بسارة خطيبته لكنه لم ينسى له أنه السبب في آلامه وحرمانه ممن يحب، خاصة بعد أن أصرت غادة أن تسافر مرة ثانية لتعيش في كندا..

وهكذا أصبح شغله الشاغل كيف ينتقم من يوسف..

كيف يجعله يعاني ويتألم مثلما كان هو السبب في آلامه.. حتمًا سيجد طريقة لذلك.. لابد أن يجدها إن كان عاجلًا أم آجلًا..

عاد ليجلس على الكرسي خلف مكتبه.. أخذ هاتفه المحمول ثم فتح برنامج الواتساب.. مرر الأسماء مسرعًا حتى توقف عند إسمها..

ضغط على صورتها وراح يتأملها بحزن..

كانت رائعة الجمال حقًا..

لمس الصورة بأنامله..

ومن عينه سالت دمعة حارقة..

******

كانت تجلس في الظلام..

وحدها.. تجلس في الظلام ..

أو هكذا تبدو..

منكمشة على نفسها في سريرها.. تحدق في سقف الغرفة دون حراك..

عيناها الواسعتان قد احمرتا بشكل عجيب وسكن تحتهما سواد غائر

شعرها الأشقر الطويل أشعث ومتنافر..

أنفاسها.. تتلاحق .. على نحو متسارع..

شيئًا فشيئًا صارت تنكمش أكثر..

عيناها المحدقتان نحو السقف المظلم تتسعان وتكاد تخرجان من مكانهما..

ثم..

بدا وكأنها تلاحق شيئًا ما بعينيها بالأعلى.. تنظر برعب هنا ثم تلتفت سريعًا هناك ثم أخيرًا تهبط بنظراتها المرتعدة مع ذلك الذي تراه كأنه استقر أمامها.. وشخصت محدقة فيما ترآى لها وقد انحبست أنفاسها رغمًا عنها..

وفجأة .. راح جسدها يرتج بعنف.. وفقدت الوعي.

*****

سيارة فارهة تتهادى بكسل وغرور في شوارع ذلك الحي الراقي من أحياء القاهرة الجديدة.. بداخلها قائدها الأكثر كسلًا منها يتدلى كتفه يمينًا بنفس زاوية تدلي ذلك السيجار الكوبي الفاخر والذي يتدلى هو الأخر بدوره من جانب شفتيه الداكنتين.. إنه حسين الغانم.. النائب والمحامي المرموق والذي يتولى مكتبه القضايا المليونية لأرباب المال والأعمال ما ظهر منها وما بطن.. كان عائدًا من سهرة جديدة من سهراته

الخاصة.. واحدة من تلك التي يخلع عنه فيها رداء الوقار والهيبة والجدية الذي يختبئ وراءهم طوال اليوم.. من يراه في واحدة من هذه السهرات لا يمكن أن يتخيل أنه ذاته العضو البرلماني البارز الذي يصول ويجول تحت قبة المجلس وخارجها..

خفف سرعة السيارة وهو يقترب من أحد الفيلات الكبيرة والمحاطة بسور عال مزين بعدد لا بأس به من كاميرات المراقبة.. مد يده وأخرج جهاز تحكم لاسلكي ضغط عليه فانفتح مرتفعًا لأعلى بهدوء بابًا جانبيًا مخصص لدخول السيارات..

دخل بسيارته ..

انغلق الباب بضغطة أخرى من ذات الجهاز..

نزل من سيارته.. كان في العقد السادس من عمره.. معتدل الطول مع بنية تميل للبدانة.. شعره قصير قد غزا جانبيه الشيب.. توجه للسلم الرخامي القصير المؤدي لباب الفيلا الداخلي الكبير..

رفع بصره نحو غرفتها..

لا أضواء.. لابد وأنها لازالت في الخارج.. هناك.. في مكان لا يريد أن يعلمه.. لو سألها لما أخبرته.. صارت أكثر تمردًا وعنادًا بصورة يصعب معها السيطرة عليها وعلى رغباتها المجنونة ونوبات غضبها المتكررة.. وهو لا يريد أن يخسرها كما خسر أمها.. فصار يتركها تفعل ما تشاء.. وتذهب أينما أرادت.. لكنه رغم ذلك كان يعرف كل تحركاتها.. ومن تقابل وأين تقضي سهراتها.. فهناك دائمًا من لا يفعل شيء سوى مراقبتها بشكل مستمر ويأتي له بأخبارها أولًا بأول.. لذا حتى الآن الأمور تحت سيطرته نوعًا ما..

دخل الفيلا..

بهو الفيلا الواسع تتزاحم في جنباته قطع الأثاث باهظ الثمن و التحف واللوحات على الجدران هنا وهناك وكأنه متحف.. توجه مباشرة إلى السلم الداخلي.. صعد درجات السلم بكسل حتى وصل للدور الثاني وسار في ردهة جانبية نحو غرفته.. قبل أن يصل توقف.. ثم استدار عائدًا إلى الجهة المقابلة.. توقف أمام أحد الأبواب ثم طرق على الباب برفق.. كرر ذلك مرة أو مرتين ولم يحصل على جواب.. فتح الباب.. مغلق.. إذن هي هنا.. حسنًا فعلت.. شعر بشيء من الاطمئنان وانصرف..

بينما هي في الداخل..

لازالت فاقدة الوعي!

*******

انتهى يوسف من محاضراته الصباحية..

جدوله اليوم مزدحم بالكثير من الأشياء.. أهمها لقاء سارة كما وعدها عند اتصاله بها بالأمس بعد عودته.. سارة كعادتها اشتكت من إهماله وانشغاله عنها، وهي على حق إلى حد بعيد، فهو يعطي وقتًا كثيرًا لعمله.. كما أن رسالة الماجستير تطغى على تفكيره..

خاصة أنه لازال يبحث عن الحالة التي ستكون محور الرسالة.. حالة من نوع غير تقليدي.. حالة يثبت من خلالها ما لديه من تصورات وأفكار.. حالة تضاهي الحالات النادرة الموثقة في كتب علم النفس..

كل من حوله صار على علم بهذه الغاية .. حتى تحول هذا البحث إلى ما قد يصل لحد الهوس لكن أين يجد هذه الحالة ومتى؟

ليس لديه أدنى فكرة.. هو فقط سيظل يبحث حتى يجدها.. وهو في سبيل ذلك بدأ يبحث بطرق غير تقليدية متنوعة.. كثيرًا ما حاول الدكتور رشدي إقناعه بتغيير موضوع الرسالة لكنه تمسك بموقفه.. هذا الموضوع هو الأهم من وجهة نظره حتى وإن لم يره الآخرون كذلك.. وهو لديه أسبابه.

الحالة الجديدة التي أوكلها له الدكتور رشدي ليست ما يبحث عنه للأسف.. حالة ممثل مشهور وكبير في العمر متهم بقتل زوجته بصورة مفاجئة ودون مبرر واضح.. لكن التشخيص المبدئي من وجهة نظره.. أن هذا الممثل يؤدي دور آخر من أدواره لكن هذه المرة في بعيدًا عن الكاميرات والأضواء ومساحيق التجميل..

يدعي الجنون هروبًا من الجريمة التي يبدو أنه ارتكبها فعلًا..

لكن لماذا فعلها؟

لعل رجال المباحث يجيبون على هذا السؤال..

رن جرس الهاتف فانتزعه من تفكيره..

- ألو.. أيوه يا حبيبي.. صباح النور.. لا طبعًا مش ناسي.. عندي بس شوية حاجات متأخره وهحاول أخلص بسرعة وأكلمك نتقابل.. لا مش هتأخر.. ماشي.. بحبك أكتر.. باي

أنهى المكالمة.. ثم نظر في ساعته.. الحادية عشر والنصف صباحًا..

مرة ثانية ارتفع رنين الهاتف، الدكتور رشدي..

- صباح الخير يا دكتور.. لا خلصت المحاضرة.. حالة إيه.. امتى وصلت.. طيب طيب.. مسافة السكة وهكون عند حضرتك..

*****

أنهى الدكتور رشدي مكالمته مع يوسف ثم رفع بصره تجاه الرجل الجالس أمامه والذي يبدو عليه التوتر الشديد وقال:

- اطمن يا حسين باشا .. إحنا إديناها حقنة مهدئة دلوقتي.. هي محتاجة ترتاح وتنام.. ودلوقتي الدكتور يوسف هيوصل ونتكلم معاه وتقدر تشرح له كل حاجة..

كان حسين الغانم يستمع بنفاذ صبر ثم قال بضيق:

- وليه مش أنت يعني.. دي بنتي يا رشدي مش أي حد..

قال دكتور رشدي مطمئنًا:

- مهي علشان بنتك اخترت الدكتور يوسف بالذات.. ده زي ابني وكمان دكتور شاطر جدًا.. واطمن أنا طبعًا هكون معاه طول الوقت.. دلوقتي أشرب قهوتك وأنا هقوم أمر مرور سريع وأرجع لك يكون الدكتور يوسف وصل ..

انصرف الدكتور رشدي وتركه وحيدًا..

لا يكاد يصدق أن ابنته الوحيدة التي منحها كل ما يمكن أن يمنح أب لابنته تصل لهذه الحالة.. استيقظ صباحًا على صراخها بشكل هستيري.. ولم يكن أحد من الشغالين قادر على تهدئتها.. حتى أم فاطمة مربيتها التي كانت معها منذ الصغر لم تتمكن من امتصاص نوبة غضبها.. وعندما هرع إلى غرفتها وجدها ممسكة بمقص وتقطع شعرها بشكل جنوني وعندما رأته كادت أن تطعن نفسها لولا تدخل أم فاطمة التي منعتها وأصيبت في كف يدها إصابة بالغة..

قام بتقييدها بملابسها بالقوة.. واتصل برشدي.. ثم آتى بها هنا للمستشفى بشكل سري.. لا يتصور ما الذي يمكن أن يحدث لو وصلت هذه الأخبار لخصومه في الانتخابات القادمة..

فجأة نظر لهاتفه ثم اتصل بأحد الأرقام بعصبية:

- أيوه يا هانم.. صحيتك.. طوز.. أنتي حاسه بحاجة.. بنتك كانت هتموت نفسها ولحقناها على أخر لحظة.. لا والله.. صدقتك أنا الشويتين دول.. لمي لسانك أحسن لك بدل ما..

فجأة سمع طرق على الباب فقطع جملته وأغلق الهاتف ونظره تجاه الباب الذي انفتح ثم دخل شاب وسيم طويل القامة رياضي البنية يرتدي نظارة طبية أنيقة..

نظر له الشاب متسائلًا:

- امال دكتور رشدي فين؟

- عنده مرور سريع وراجع.. أنت الدكتور يوسف؟

ابتسم له الدكتور يوسف ومد يده مصافحًا:

- وحضرتك؟

- أنا حسين الغانم.. والد فريدة..

عقد يوسف حاجبيه متسائلًا فأكمل حسين:

- فريدة.. بنتي.. اللي الدكتور رشدي كلمك عليها من شوية..

- اوه.. أهلًا بحضرتك.. سلامتها.. إن شاء الله هتبقى كويسة وأحسن من الأول..

- تفتكر؟!

نظر له يوسف باستغراب بعد سؤاله الأخير ثم قال:

- خليني أشوفها الأول وأقعد معاها وإن شاء الله خير.. بس أنا محتاج من حضرتك شوية معلومات قبل ما أشوف فريدة..

تسأل حسين الغانم بشيء من عدم الارتياح:

- معلومات عن إيه بالظبط؟

انتبه يوسف للتغير الذي طرأ على حسين الغانم لكنه قال:

- أبدًا.. يعني عاوزك تكلمني عن فريدة شوية مش أكتر.. بس طبعًا ممكن أحتاج أقعد مع حضرتك تاني بعد ما أشوفها..

- مفهوم مفهوم..

قبل أن يجيب يوسف دخل الدكتور رشدي وما أن رأى يوسف حتى قال:

- كويس إنك جيت.. ياريت تبقى تشوف فريدة وتعملي تقرير مبدئي .. احنا اديناها حقنة نيوريل..

- تمام.. أنا كنت لسه بتكلم مع الأستاذ حسين وبقوله لو ممكن يديني شوية معلومات عن...

قاطعه دكتور رشدي قائلًا:

- مفيش داعي ترهق حسين باشا ... أي معلومات تحتاجها أنا هبقى أديهالك بنفسي.. بس دلوقتي روح شوف فريدة

عقد يوسف حاجبيه باستغراب ثم مط شفتيه قائلًا:

- أوك.. هشوف فريدة..

ثم استأذن لينصرف لكن الدكتور رشدي استوقفه:

- يوسف.. زي ما قلت لك فريدة حاولت الانتحار.. اتأكد بنفس إن ميكونش في أوضتها أي حاجة ممكن تأذي نفسها بيها.. وكمان الممرضات اللي هيتابعوها معاك يخلوا بالهم..

هز يوسف رأسه بالإيجاب وقال:

- أكيد طبعًا.. اطمّن يا دكتور.

ثم استدار وانصرف بينما حسين الغانم يتابعه ببصره ثم التفت نحو دكتور رشدي وقال بتوتر:

- أنت واثق في الواد ده يا رشدي؟

- اطمّن.. ده أحسن دكتور عندي..

- أنا مش بقولك أحسن ولا ما أحسنش.. أنا بقولك واثق فيه؟ أنت عارف لو الموضوع اتسرب واتعرف إيه اللي ممكن يحصل..

هز دكتور رشدي بالإيجاب وقال بثقة:

- اطمّن

لم يبدو من تعبيرات حسين الغانم أنه اقتنع..

- هنشوف.. هنشوف

قالها وفي قلبه كان يشعر أن القادم أسوأ..

*****

رغم أنه يعلم أنها ولابد لازالت نائمة تحت تأثير حقنة المهدئ.. توجه يوسف مباشرة نحو غرفة فريدة

كان بداخله يشعر أنه سيكون أمام حالة مختلفة ، لماذا لا يدري؟

هذا الشعور كان قوي لدرجة أنه كان يسير بخطِ مسرعة وبلهفة غريبة..

توقف قليلًا أمام باب الغرفة وزفر بقوة كأنه يتأهب لما ينتظره بالداخل..

طرق الباب بلطف.. ثم دخل الغرفة.

ما أن رآها حتى زاد داخله ذلك الشعور الخفي...

كانت تبدو مستغرقة في النوم..

اقترب أكثر ليراها عن قرب..

ملامحها تبدو أوروبية فاتنة إلى حد بعيد.. كيف لفتاة بهذا الجمال وهذا الثراء أن تقدم على الانتحار.. لم يفكر كثيرًا في إجابة السؤال فمنذ عمله في هذه المستشفى منذ سنوات وهو تعود أن يرى من عجائب وغرائب البشر ما يحير العقول ويثير الفضول.. تنهد ثم استدار لينصرف.. وقبل أن يهم بفتح باب الغرفة خارجًا سمع من وراءه صوت.. التفت نحوها واقترب كي يتأكد.. نظر لملامح وجهها فخيل إليه أنها تحلم حلمًا ما.. لكنه أبدًا ليس حلمٌ عاديًا.. عيناها المغمضتان تتحركان بسرعة وتوتر.. بدأت تعابير وجهها تتقلب وكأنها تتألم ألمًا شديدًا.. تعجب كيف يحدث ذلك وقد أخذت منذ قليل حقنة مهدئة يُفترض أن تستغرق بعدها في نومٍ عميق..

لدهشته.. وجد دموعا بدأت تنسال من عينيها..

كان صوت أنفاسها قد بدأ يضطرب على نحو سريع..

فكر أنه لابد أن يتخذ إجراءًا ما..

فجأة .. فتحت عيناها.. واعتدلت جالسة في سريرها.. وقد شخصت ببصرها للأمام..

عقد يوسف حاجبيه في دهشة..

بدا أنها تحدق في شيء ما.. ثم فجأة التفتت يمينًا.. ثم لأعلى.. ثم عادت لتنزل ببصرها ببطء وتثبت نظرها نحو يوسف.. أو بالتحديد وراء يوسف.. التفت يوسف لاإراديًا خلفه لينظر ما الذي تحدق إليه.. لا شيء..

عاد ببصره مسرعًا نحوها.. فوجئ بسبابتها قد ارتفعت لتشير لشيء ما وراءه وقد علت ملامحها رعب كبير.. مرة ثانية نظر يوسف حيث تشير.. لا شيء..

أشار بيديه لها إشارات حائرة وكأنه يقول لا يوجد شيء..

فجأة بدأت تنكمش في سريرها وكأنها خائفة مما تراه خلفه..

وكأنها تحاول أن تبتعد عن ذلك الذي يقترب منها..

عيناها تتابع وقد اتسعتا برعب هائل..

ثم..

صرخت صرخة هائلة انخلع لها قلب يوسف..

*****

# الفصل الثاني

مرت أكثر من ساعة منذ أن وصلت سارة للكافيه في وسط البلد ويوسف لم يصل بعد، نظرت في ساعتها بضيق شديد، ليس من عادته أن يتأخر عليها بهذا الشكل، صحيح أنه صار أكثر انشغالًا مؤخرًا لكنه طالما حددا موعدا للقاء فهو لا يتأخر.. حاولت الاتصال به أكثر من مرة لكنه لم يرد.. عادت بذاكرتها لأول مرة رأته فيها.. كان ضيف أحد البرامج على أحد الفضائيات.. أعجبها أسلوبه الهادئ في الحوار والمواضيع الشيقة التي يتناولها والرد على أسئلة تلك المذيعة اللزجة.. كان له جاذبية خاصة وفي نفس الوقت يتحدث بأريحية محببة..

ثم كانت المفاجأة ذات مساء في حفل زواج أحد صديقاتها.. يوسف كان موجودًا في الحفل.. عرفت أنه صديق للعريس.. اندهشت كثيرًا لهذه المصادفة وشعرت وكأن القدر يكتب لهما شيئًا في المستقبل القريب.. لماذا فكرت بهذا الشكل لا تدري..

وعلى غير توقعها.. لم يحدث أن التقيا بعد ذلك في أي مناسبة أخرى، لكنها صارت تترقب ظهوره في ذلك البرنامج مرة ثانية، كانت تتصرف دون فهم طبيعة مشاعرها في هذه المرحلة، ولا تجد تبريرًا لاهتمامها به لهذه الدرجة.. ثم كان اللقاء المباشر بينهما بعد عام كامل.. والغريب أنه أيضًا كان في حفل عيد زواج نفس الصديقة، هذه المرة أتاح العدد الأقل للحضور فرصة للتعارف..

- تحبي حضرتك تشربي حاجة تانية؟

نظرت لذلك الشاب الذي اقتحم أفكارها بسماجة دون استئذان بابتسامة مصطنعة..

- شكرًا.. أنا خلاص قايمة.

قبل أن تقوم لمحت يوسف يدخل من باب الكافيه ويتلفت بحثًا عنها.. أشارت له فرآها واتجه نحوها مبتسمًا..

- لسه بدري.. كنت فين حضرتك ده كله؟

- خليني بس أطلب حاجة ..

انتظرت حتى أنهى طلبه.. : هه؟

- هه إيه؟

- اتأخرت ليه؟

- حالة جديدة جت المستشفى والدكتور رشدي كلمني وقالي أكون موجود..

- يعني زي ما توقعت.. دايمًا أنا في أخر اهتماماتك.

تنهد..

- سارة الله يخليكي بلاش الكلمتين اللي كل شوية تسمعهم لي دول..

عقد حاجبيها بضيق ولم تعلق فقال محاولًا استمالتها:

- تعرفي إنك وحشتيني؟

وبالفعل نجحت كلمته في حل عقدة حاجبيه فابتسمت وقالت بعتاب مصطنع:

- مهو باين.. بأمارة إنك جيت لي جري ومسبتنيش ملطوعة ساعة مستنياك..

- بحبك..

قالها بمشاعر حقيقية فاحمر وجهها خجلًا وقالت مغيرة دفة الحوار:

- ويا ترى الحالة دي بقى هتكون الحالة الموعودة اللي بتدور عليها؟

صمت يوسف مفكرًا ثم قال بشرود:

- حالة غريبة جدًا.. لسه بدري أوي على ما أشخصها.. بنت رجل تقيل أوي.. جميلة جدًا.. حاولت تنتحر فجأة.. لحقوها على آخر لحظة وجابوها عندنا.. مش عارف ليه حاسس إنها فعلًا هتكون الحالة اللي كنت بدور عليها، شيء جوايا بيقولي هي دي.. عارفة أنا مقدرتش أصبر إنها تفوق من المهدىء اللي خدته.. روحت مباشرة على أوضتها علشان أشوفها.. و..

فجأة انتبه لملامح وجه سارة وقد عقدت حاجبيها بشيء من الضيق، قطع كلامه ونظر لها باستغراب متسائلًا:

- إيه؟ في حاجة؟
- مفيش..
- مفيش يعني إيه.. شكلك اتغير فجأة.. قولي في إيه؟
- قلت لك مفيش.. يلا علشان عاوزة أقوم..
- ملحقناش نقعد ونتكلم..
- حاسة بصداع.. يلا

لم يجد داع لمحاولة إثنائها عن الانصراف خاصة وقد قامت وحملت حقيبتها..

طوال الطريق لم تنطق بكلمة.. وهو التزم الصمت.. كان عقله منشغلًا بفريدة لدرجة أنه لم ينتبه لسكوتها حتى قالت فجأة بغضب:

- جميلة جدًا.. مش كده!

التفت نحوها بدهشة محاولًا استيعاب ماذا تقصد، ثم قال بحيرة:

- نعم! انتي بتتكلمي عن إيه؟

انفجرت غاضبة: الهانم اللي حاسس إنك لقيتها خلاص وجريت تشوفها في أوضتها وسبتني ملطوعة أكتر من ساعة ولا على بالك..

نظر لها لثوانٍ متعجبًا ثم فجأة انفجر بالضحك بينما هي تطالعه بغضب:

- بقى ده اللي مزعلك..

- معرفش.. يعني بقى لي كام يوم مش عارفة أقابلك علشان أوريك التصميمات بتاع الشقة وطول الوقت مشغول ولما تظهر أخيرًا تقعد تحكي لي على المجنونة بتاعتك..

ردت بغضب ثم عادت لتنظر أمامها دون أن تزيد.. فقال محاولًا امتصاص غضبها:

- أنا أسف.. حقك عليه.. بس انتي عارفة موضوع رسالة الماجستير بتاعتي شاغلني قد إيه.. علشان كده كان عندي فضول وبحكي لك بحماس مش أكتر..

- وطبعًا لما شفتها جميلة جدًا قلت خلاص لقيتها

ابتسم لها وقال:

- يا حبيبتي أنا بوصف لك مجرد وصف.. يعني إزاي واحدة بنت راجل غني كده وجميلة جدًا تحاول تنتحر.

قاطعته بغضب:

- تاني هيقولي جميلة جدًا.. يوسف.. لو سمحت متتكلمش تاني لغاية ما توصلني البيت..

هز رأسه متنهدًا ثم قال مبتسمًا: أوامرك..

*****

فوجئ الدكتور رشدي بهاني يدلف للغرفة فاتحًا الباب فجأة دونما استئذان فنظر إليه بانزعاج وقال بغضب:

- إيه ده يا بني.. أنت مخك جرى له حاجة؟

- الحالة الجديدة اللي وصلت النهاردة يا دكتور..

كانت كلماته غاضبة بشدة

- مالها؟

سأل الدكتور رشدي بضيق..

- حضرتك برضو حولتها على يوسف؟

- وإيه المشكلة؟

انفجر هاني بغضب قائلًا:

- المشكلة إن بقى مليش أي لازمة في المستشفى.. يوسف بيه بقى هو الكل في الكل.. وأنا مجرد كومبارس صامت مبنطقش بكلمة..

كان الدور هذه المرة على الدكتور رشدي الذي انتفض واقفًا من على كرسيه وقال بغضب:

- اسمع يا بني أنت.. أنت مش علشان أبوك صاحبي تنسى نفسك وتنسى أنت بتكلم مين.. أنا لولا أبوك كان هيبقى لي معاك تصرف تاني.. محدش هنا له كلمة غيري أنا.. أنا اللي أقول مين يعمل ومين ما يعملش.. ودلوقتي روح شوف شغلك ومش عاوز أسمع منك كلمة في الموضوع ده تاني.. اتفضل!

كانت كلماته كطلقات مدفع أصابت كلها هاني في مقتل دون أن يذرف نقطة دم واحدة، لكنها أججت داخلة ثورة مكتومة تكاد أن تنفجر..

نظر للدكتور رشدي بتحدٍ كبير ثم استدار وخرج من الغرفة!

خارج الغرفة توقف لثوان ثم عاد ببصره تجاه الباب المغلق.. وقال بصوت جاهد ليكون خافتًا:

- ماشي يا دكتور رشدي.. هنشوف.. أنا ولا يوسف بتاعك

*****

- شد على نفسك كمان.. كمان.. أحسن وحش!

كان يصيح بحماس وأداء مسرحي مبالغ من ذلك الشاب المفتول العضلات الذي يتصبب عرقًا أمامه بينما يجاهد ليرفع الثقل الكبير المتدلي من أحد الأجهزة الرياضية الحديثة..

صاحب الأداء المسرحي كذلك لم يكن يختلف عن الشاب .. كان طويل القامة، مفتول العضلات بشرته الداكنة تعطيه مظهرًا جذابًا مع رأسه المحلوق من الشعر تمام على عكس لحيته السكسوكة المشذبة بعناية جعلته أقرب ما يكون من هوجان المصارع الشهير في التسعينات ويرتدي تيشيرت ضيق يرسم عضلاته بشكل أنيق.

- يا بني ارحم الراجل..

التفت لينظر تجاه الصوت ثم قال بحماس:

- أوباااا دكتور جو..

ابتسم له يوسف وصافحه بحرارة:

- ازيك يا هشام.. وحشني والله.

- وحشتك فين يا عم.. أنت حد بقى بيشوفك.. ثم التفت للشاب على الجهاز: كمل أنت زي ما قولنا.

ثم وضع يده على كتف يوسف وسار معه مبتعدًا..

- والله غصب عني.. وقتي دايما بقى مزنوق.. الكلية والرسالة من ناحية والمستشفى من ناحية غير سارة بقى دي قصة لوحدها..

- اه صحيح هي عاملة ايه؟

سأل هشام بينما يجلسان أمام بار يقف وراءه شاب يرتدي الزي الخاص بالصالة الرياضية وتصطف من وراءه أرفف عليها علب مختلفة لمقويات وفيتامينات مستوردة .. ابتسم لهما الشاب وقال:

- تشربوا ايه يا كابتن هشام..

- أنا ولا حاجة بس هات للدكتور يوسف الكوكتيل المخصوص بتاعنا..

تنهد يوسف وقال:

- سارة كويسة.. يعني زي ما هي.. لسه موصلها البيت بعد ما دبت خناقة معايا..

- ليه بقى

حكى له يوسف باختصار عن فريدة والموقف الذي حدث بينه وبين سارة.

- طيب ما هي كده عندها حق..

نظر له يوسف باستغراب فأكمل:

- يا بني مينفعش تبقى مشغول عنها طول الوقت وكمان لما تشوفها تقعد تحدف طوب ودبش وتتكلم عن شغلك وتتغزل في المريضة بتاعتك..

- تفتكر..

- ما أنا افتكرت وقلت خلاص.. قوم يلا كلمها وصالحها..

هز يوسف رأسه نفيًا:

- لا لا مش دلوقتي خالص.. بعدين بقى لما أروح تكون هي كمان هديت.

- براحتك.. طيب إيه؟

سأل هشام: إيه.. إيه؟

رد يوسف متسائلًا فأجاب هشام: التمرين يا دكترة.. أنت خلاص مش في دماغك خالص.. يلا قوم غير وتعالى لي هشدك شدة محترمة.

- لا مش النهارده.. أنا يدوبك ألحق أرجع المستشفى..

أجاب يوسف:

- زي ما تحب.. بس أعمل حسابك أخر الأسبوع في تمرينة جامدة.. قشطة..

- قشطة.

ثم قام يوسف يستعد للانصراف قائلًا:

- يلا.. أنا همشي أنا دلوقتي..

- طيب والكوكتيل..

- معلش أشربه أنت يا بطل.. شكلك خاسس وترابيسك مش عاجباني.

قالها ثم انصرف ومن ورائه وقف هشام مندهشًا ثم توجه لأحد المرايا المعلقة على الحائط وطالع نفسه متفحصًا عضلاته ثم ظهر على ملامحه شيء من القلق ثم صاح بصوت جهوري:

- واااائل.. خلي لي الكوكتيل دوبل!

*****

عاد يوسف للمنزل مساءًا وبداخله شعور بالإحباط.. لم يتمكن من اللقاء بفريدة التي ظلت نائمة باستمرار.. أنهى بعض العمل ثم قاد سيارته عائدًا للبيت..

في الطريق أتصل بسارة، لحسن الحظ كانت أكثر هدوءًا مما كانت عليه حين تركها..

اعتذر لها.. قبلت اعتذاره مع جرعة من كلمات العتاب المعتادة وتحليل الموقف الذي حدث بدقة تفوق تحليل الكباتن للمباريات في استديو كابتن مدحت شلبي .. استمع لها بصبر حتى أنهت ما كانت تحبسه داخلها طوال اليوم.. كرر اعتذاره بحب .. وهكذا أغلق الستار على هذا الفصل .. ثم تحدثت معه عن بعض الأفكار والتصميمات التي تود تنفيذها في شقتهما..

عندما وصل البيت كانت أمه نائمة بينما كانت أخته سلمى تستعد الآخر للنوم:

- إيه أخبار الكلية يا دكتورة؟

سألها فأجابت بكسل:

- مش ملاحقة والله.. أنا كان مالي ومال الطب.. لا وإيه.. لسه ست سنين كمان..

ابتسم لها مشجعًا وقال:

- معلش.. بس بكره لما تخلصي وتلاقي إنك حققتي اللي كان نفسك فيه هتحسي بمتعة الانجاز..

كانت تستمع له وتهز رأسها بإيجاب مصطنع ثم قالت مازحة: بقولك إيه يا دكتور.. أنت في البيت على فكرة مش في السكشن عندك في الكلية.. ريلاكس أنت

كده وادخل نام وأنا أوعدك بصدق وأمانة إني هحس بمتعة الانجاز والإعجاز كمان..

نظر لها مبتسمًا وقال:

- طيب تصبحي على خير..

أشارت له بيدها وقالت:

- أحلام سعيدة يا دكتور.

كان يشعر أنها ابنته وليست أخته، فمنذ وفاة والدهما أخذ على عاتقه مسئولية محاولة سد جزء من ذلك الفراغ الكبير الذي تركه والده الراحل في حياتهم جميعًا..

أخد حمامًا دافئًا ثم استلقى على سريره وظل قرابة الساعة يتقلب في سريره.. كانت فريدة تلح بإصرار على أن تكون ضمن خيالات وأفكار ما قبل النوم المبعثرة حتى تمكن أخيرًا من إسكات هذه الأفكار وراح في النوم..

ثم.. فجأة استيقظ.. وفتح عينيه ..

انتبه أنه غير قادر على الحركة وكأن عضلاته جميعًا قد أصابها شلل.. حاول أن يصرخ لينادي على أمه أو أخته.. لكنه صوته قد صار حبيسًا هو الآخر لا ينطق.. الشلل الذي أصاب عضلاته قد أصاب لسانه أيضًا.. فجأة.. هُيئ له وكأن سقف الغرفة قد تحول إلى ضباب كثيف وداكن..

برقت عيناه بقوة محدقًا في السقف ...

كانت رئتاه قد بدأتا تعانيان لالتقاط الهواء..

وبينما هو كذلك إذ بذلك الضباب ينقشع ببطء لتظهر هي هناك.. بالأعلى .. فريدة.. بدت كما لو كانت تطفو أو تحلق في سقف غرفته وسط ذلك الضباب .. قد

مدت ذراعيها وكأنهما جناحين .. شعرها ينسدل على جانبي وجهها ويتطاير بشكل عجيب وكأنها تتحرك بالحركة البطيئة.. كانت تحدق له مباشرة بشكل مخيف جعل البرودة تسري في أوصاله..

أغمض عينيه بقوة لا يصدق ما يرى..

خُيل إليه أن جسده يرتعش رغمًا عنه رعشة غريبة ارتعدت لها جميع أوصاله..

شعر برعب هائل وفتح عينيه مرة أخرى..

نظر حيث كانت.. لكنها لم تعد هناك..

فقط السقف خاوي

تحرر جسده من تلك الأثقال التي كانت تكبله

وانتهى كل شيء ..

*****

فتح هاني باب غرفته لينظر في الممر الخالي..

ظل ثابت في مكانه لثوانٍ.. تأكد أنه ما من أحد، كان قد طلب من الدكتور إبراهيم، الطبيب المكلف بالمناوبة الليلية، أن يحل محله متعللًا برغبته في بعض الهدوء..

كما توقع.. الممر هامد تمامًا لا حياة فيه..

خرج من غرفته وأغلق الباب بهدوء ثم توجه مباشرة صوب غرفة يوسف.. توقف مرة أخرى لثوانٍ أمام الباب.. ثم فتح الباب ودخل وأغلق الباب من وراءه..

توجه مباشرة لمكتب يوسف.. أخذ يبحث بسرعة في الأوراق وبعض الملفات لكن يبدو أنه لم يعثر على ضالته، وضع الملفات بضيق وأعاد ترتيبها كما كانت ثم بدأ يحاول فتح الأدراج.. جميعًا كان مغلق..

زفر في عصبية ثم بيأس ضغط على أحد أزرار لوحة المفاتيح الخاصة بالحاسب الآلي.. برقت عيناه في ظفر عندما أضاءت شاشة الجهاز.. بسرعة بدأ يبحث عن ملفات الحالات الجديدة.. أخذ يقرأ الأسماء حتى توقف عند اسم معين وقرأ بصوت خافت: فريدة حسين الغانم..

عقد حاجبيه بدهشة ثم كرر: حسين الغانم! معقولة..

ابتسم بخبث وهو يفتح الملف وبدأ يقرأ المعلومات المبدئية التي كتبها يوسف ومع قراءته اتسعت ابتسامته وقد شعر أنه على وشك التخلص من يوسف نهائيًا.. وللأبد!

*****

في صباح اليوم التالي وصل يوسف مبكرًا كعادته للكلية، أنهى محاضراته ثم انطلق مباشرة للمستشفى بعد الظهر.. في الطريق لغرفته قابل دكتور إبراهيم زميله في المستشفى فنظر له بدهشة وقال:

- دكتور إبراهيم.. نجم الليل يتجول في الطرقات بالنهار مثل شبح شارد .. إيه ده؟!

ضحك إبراهيم وقال:

- شفت بقى إزاي..

- لا مشفتش.. قولي أنت إزاي؟!

- أبدًا يا سيدي.. أخونا هاني حب يعمل فيه خير على غير العادة وقالي أبدل معاه وردية ليلة إمبارح..

عقد يوسف حاجبيه باستغراب وقال:

- هاني.. غريبة!

- مهو أنا برضو قلت كده.. بس ده اللي حصل.. يلا صباحك جميل يا دكترة.. أه صحيح.. الدكتور رشدي كان سأل عليك..

توجه يوسف لغرفة الدكتور رشدي، كان يعلم أنه بالتأكيد سوف يتحدث معه بخصوص فريدة.. ليس لديه شيء يقوله بخصوص حالتها.. دلف للغرفة.. كان الدكتور رشدي منهمكًا بقراءة أحد الملفات وقد انحدرت نظارته حتى كادت تسقط من فوق أرنبة أنفه، كان يشبه موظف شهر عقاري بصلعته وكرشه الضخم.. رفع بصره ليوسف وقال:

- ازيك يا يوسف.. مش عاوز أأكد عليك بخصوص حالة فريدة.. الموضوع ده محدش يعرف بيه نهائي.. أنت عارف دي بنت مين..

- عارف طبعًا.. اطمن يا دكتور.

- أنت شفتها النهارده؟

- لا أنا لسه واصل.. وامبارح كانت نايمة.. شوية وهروح أشوفها..

- طيب أنا منتظر منك تقرير أولي عن حالتها..

تركه يوسف وخرج.. مر مرورًا سريعًا على بعض الحالات.. كان يحاول جاهدًا أن يتصرف بشكل طبيعي لكنه بداخله كان يرغب لو أنه يستطيع أن يتوجه مباشرة لغرفة فريدة..

وأخيرًا.. فعل ..

طرق الباب بلطف.. ثم دخل.. كانت فريدة مستيقظة.. قد وقفت تنظر من النافذة في شرود .. لم تشعر بدخوله..

وقف لثوانٍ يتأمل شعرها الأشقر الطويل المنسدل على ظهرها.. مرت بعقله صورة سريعة لها بالأمس في حلمه..

هكذا فسر ما رآه.. مجرد حلم.

- صباح الخير..

قالها بهدوء.. فالتفتت له وما أن رأته حتى برقت عيناها وبدا عليها الدهشة الشديدة ولم تنطق بكلمة.. انتبه يوسف لذلك وواصل:

- أسف لو أزعجتك.. أنا الدكتور يوسف.. لو معندكيش مانع نتكلم شوية..

كانت لازالت تنظر له باندهاش ثم ما لبثت أن اقتربت منه أكثر وهي تحدق في ملامح وجهه..

- لو مش حابة تتكلمي دلوقتي ممكن نخليها بعدين..

لم ترد عليه فابتسم لها مطمئنًا ثم استدار لينصرف لكنه توقف فجأة حين سمعها تقول بصوت بدا وكأن مشروخ:

- إمبارح!

استدار إليها متعجبًا: ماله إمبارح؟!

نظرت له نظرات خاوية.. صمتت لثوان.. ثم قالت: إمبارح.. شوفتك إمبارح .

ظلت تكرر الكلمة في شرود..

- يعني إيه؟

سألها يوسف متعجبًا..

لكنها بدت وكأنها في عالم آخر وراحت تردد كلمات مبهمة دون توقف..

*****

كان عاصم فتحي الصحفي بأحد الجرائد الخاصة والمملوكة لأحد رجال الأعمال البارزين جالسًا على مكتبه بصالة التحرير وقد انشغل في كتابة خبر عن أحد حوادث الانتحار التي صارت منتشرة مؤخرًا.. لم يعد الأمر بالنسبة له أكثر من مجرد خبر روتيني يملأ به تلك المساحة المملة المخصصة له بصفحة الحوادث..

في نهاية الأمر هو لا يعتقد أنه لازال هناك من يهتم بقراءة جريدتهم ولولا تلك الإعلانات الخاصة بشركات مالك الجريدة وآخرين ممن لهم معه مصالح مشتركة ما تمكنت الجريدة من الاستمرار..

لم يكن مكتبه مكتب مستقل أو منفصل، بل كان مجرد ركن مخصص له على طاولة استطالت ليحتلها مجموعة من شباب الصحفيين متراصين عليها مثل الدومينو وقد وضع كل منهم رأسه في أحد شاشات الكمبيوتر بينما تضرب أصابعهم في رتابة وضجيج مزعج على لوحات المفاتيح.. لكن عاصم كان من الدهاء بحيث اختار أن يكون مكتبه في أول الصف، حتى لا يشعر أنه محاصر عن اليمين واليسار، هو الآن عن يمينه ممر وعن يساره تجلس أحد الصحفيات المستجدات تحت التمرين، وهذا كان ميزة إضافية من وجهة نظره..

فجأة رن جرس هاتفه المحمول، رد بود مصطنع بعد أن طالع الاسم وأجاب:

- دكترة.. أخيرًا افتكرتني.. أهو عايشين.. أنت أخبارك إيه وأخبار المجانين اللي عندك.. طيب طيب.. قول يا سيدي.. هه .. بتقول مين..

بدا عليه التركيز وقد عقد حاجبيه وهو يصغي لما يقوله الطرف الآخر، ثم قال:

- انت متأكد من الكلام ده ولا هتلبنسي في الحيط؟.. طيب بس أنا هحتاج شوية تفاصيل.. ماشي.. ماشي .. أكيد طبعًا .. خبر زي ده مينفعش يتحط في الدرج

بس كمان عاوز موافقة من فوق علشان يتنشر.. قشطة يا دكترة.. نردها لك في الأفراح.. سلام..

*****

بعد ساعتين من هذه المكالمة..

رن جرس هاتف آخر..

هذه المرة كان الهاتف المحمول الخاص بحسين الغانم.. أشار لسكرتيره الخاص أن ينصرف ثم أجاب:

- إزيك يا نجمة.. والله وحشتيني.. صدقيني مشغول بس شوية اليومين دول.. خير..

فجأة تبدلت ملامح وجهه وظهر عليه الغضب وهو يقول:

- مين اللي قالك الحكاية دي.. هه.. علي محفوظ.. وأكدتي عليه إن مفيش حاجة تتنشر.. أنا هكلمه بنفسي تاني.. سلام

أنهى المكالمة ثم صرخ على سكرتيره بصوت عال:

- رامي..

بسرعة دخل للغرفة مرتبكًا قبل أن يسأل عاجله:

- عندك رقم علي محفوظ؟

سأل رامي بتردد وقد استشعر وجود مصيبة:

- علي محفوظ رئيس تحرير جريدة الـ..؟

- أيوه رئيس الزفت.. أنت جرى لك إيه؟

صوت حسين الغانم اقتلعه من مكانه فهرول خارج المكتب وهو يردد: لحظة واحدة بس ويكون عند حضرتك!

غاب قرابة الثلاث دقائق تخللتها صيحات حسين الغانم الغاضبة يستعجله.. أخيرًا عاد بورقة كتب عليه أحد الأرقام.. ثم وقف متردد في انتظار أوامر جديدة من حسين الغانم الذي أشار له بغضب كي يخرج بينما يجري الاتصال..

انتظر بنفاذ صبر حتى سمع صوت علي محفوظ:

- أيوه يا علي.. أنا حسين الغانم.. اسمع الخبر اللي جالك ده لو أي مخلوق عرف بيه أنا هنسفك أنت واللي مشغلك.. مش عاوز كتر كلام.. الواد اللي جاب لك الخبر ده.. قالك مين بلغه.. مين ..إيه ؟! يوسف ياسين!

واشتعلت عيناه بغضب لا حدود له

*****

أمسك يوسف بقلم راح يرسم به دوائر تداخلت حتى بدت وكأنها أحد لوحات الفن التجريدي..

كان مستغرقًا في التفكير..

ما معنى ما قالته فريدة؟

"شوفتك إمبارح"

تُرى ما الذي كان تقصده؟

هل كانت تقصد أنها رأته عندما استيقظت بالأمس لتجده أمامها أول مرة؟

بالتأكيد هذا ما قصدته؟

ما الذي يمكن أن يكون غير ذلك؟

ثم الحلم.. الحلم الذي رآه بالأمس.. هل يكون مجرد هلاوس مصاحبة لما يعرف بحالة شلل النوم وهي الحالة التي يعتقد أنه مر بها، أم أن الأمر أبعد ذلك؟! لكن أبعد إلى أي مدى؟

لقد كانت تنتابه حالات شبيهة عندما كان صغيرًا لكنها توقفت عن الحدوث في مرحلة الثانوية العامة، كانت تحدث له كثيرًا في هذه الأيام ثم توقفت فجأة تمامًا حتى عادت ليلة أمس، والأغرب ظهور فريدة وهو الشيء الذي لم يحدث من قبل أبدًا، أن يرى أي شخص أثناء حالة شلل النوم.. كان ربما يرى أو يسمع أشياء غريبة لكن أبدًا لم يرى من قبل أي شخص يعرفه..

*شلل النوم أو الجاثوم هو حالة من الاختناق وعدم القدرة على الحركة أثناء النوم تحدث بسبب خروج الإنسان من مرحلة النوم الحالم إلى مراحل النوم غير الحالم ومن ثم الاستيقاظ ووعيه بما حوله، إلا أنه - خلافًا للطبيعي – لا يمكنه التخلص من خاصية الارتخاء العضلي الكامل التي تميز النوم الحالم، مما يؤدي إلى الشعور بالتوتر والرعب الشديدين، نتيجة لرؤية بعض الأطياف المزعجة، والإحساس بالعجز والاختناق وعدم القدرة على الكلام والحركة.

الاحتمال الآخر أن تكون..

قطع تفكيره صوت طرق على الباب.. ثم فُتح الباب دون انتظار رد منه نظر فإذا هو هاني..

دخل مباشرة وأغلق الباب ثم التفت نحو يوسف بابتسامة جاهد أن تكون حقيقية لكن دون فائدة وقال:

- إيه مشغول؟

رفع يوسف حاجبيه باندهاش وقال: لا بس مستغرب.. أنت مش بدلت إمبارح مع إبراهيم.. جاي بدري يعني النهارده..

مط هاني شفتيه وقال بتصنع: بصراحة حسيت إني زودتها أوي معاك لما اتكلمنا أخر مرة.. بقيت قاعد في البيت مش متصور أنا إزاي كنت جلياط وقليل الذوق معاك كده.. علشان كده مقدرتش أستنى وجيت أتأسف لك..

كان يوسف يستمع باستغراب .. ليس من عادة هاني أن يكون مرهف الحس بهذا الشكل، ولا أن يأتي معتذرًا أيًا كانت الأسباب، لابد وأن هناك سبب أخر وراء هذه الزيارة..

- بسيطة يا عم هاني ولا يهمك..

أجاب يوسف بابتسامة

- يعني بجد من قلبك مش زعلان

قال هاني بنفس الأسلوب المتكلف

هز يوسف رأسه بالإيجاب وقال:

- يعني أحلف لك ولا إيه..

تحرك هاني ليجلس على المقعد أمام مكتب يوسف وهو يقول بابتسامة عريضة:

- يبقى تطلب لنا بقى اتنين قهوة نشربها مع بعض..

- ماشي يا عم هاني.. غالي والطلب رخيص

ثم طلب القهوة..

*****

- انت بتقول ايه؟ مستحيل يوسف يعمل حاجة زي كده..

كان صراخ حسين الغانم عبر الهاتف يكاد يخرق طبلة إذن دكتور رشدي لكن ذلك لم يمنعه أن يقول بإصرار:

- أنا معرفش ده حصل إزاي؟ بس اللي أعرفه إن مستحيل يكون يوسف.. اسمع أنت حاول تخلي علي محفوظ يتكلم مع الواد الصحفي اللي عنده ويطمنه ويحاول يعرف منه مين اللي بلغه بالظبط.. وأنا من ناحيتي هكلم يوسف وأشوف إيه الحكاية

أبعد الهاتف عن إذنه بنفاذ صبر بينما حسين الغانم يواصل صرخاته وتهديداته الغاضبة، هو على يقين أنه لا يمكن أن يكون يوسف وراء تسريب هذا الخبر لكنه كذلك يدرك أن من سرب هذا الخبر لابد أنه هنا في المستشفى.. وهذا ما كان يجعله يشعر بخطر بالغ إذا لم يتحرك بسرعة لمعرفة من الذي فعلها وإلا فإن ما من أحد في الكون من الممكن أن يتوقع ما الذي قد يفعله حسين الغانم.. انتهى حسين الغانم من وصلة الصراخ فعاد دكتور رشدي ليكرر:

- خلاص يا حسين باشا.. إطمن.. وأنا مستني منك تقولي علي عمل إيه مع الواد الصحفي.. سلام

أنهى المكالمة ثم ألقى الهاتف على المكتب بغضب ثم أمسك الهاتف الداخلي للمستشفى واتصل بأحد الأرقام:

- يوسف.. كويس إنك في مكتبك.. تعالي لي حالًا.. لا.. بقولك حالًا..

*****

كان هاني يتفحص وجه يوسف بينما ينهي المكالمة مع الدكتور رشدي ثم قال بتصنع:

- والله الدكتور رشدي من غيرك لا يعرف يروح ولا ييجي.. عاوزك في إيه المرة دي؟

ابتسم له يوسف وقال:

- معلش يا هاني.. هاروح أشوفه عاوز إيه.. وانت خليك كمل قهوتك..

نهض هاني واقفًا وقال:

- أنا هاخد قهوتي وأشربها في مكتبي يا عم..

ثم أردف بلهجة غريبة: ما يصحش أقعد في مكتب نائب مدير المستشفى وهو مش موجود.. ولا إيه؟

عقد يوسف حاجبيه باستغراب ثم قال: شكلك رايق..

ثم خرجا معًا..

*****

لم يستطع حسين الغانم أن يبقى في مكتبه انتظارًا لاتصال الدكتور رشدي..

ألغى كل الاجتماعات وانطلق بسيارته مباشرة نحو المستشفى..

لم يكن قادر على تخيل ما الذي يمكن أن تؤول إليه الأمور لو تسربت أخبار وجود فريدة في المستشفى إلى خصومه، لابد وأنهم سوف يستغلون هذه الفرصة للانقضاض عليه وتشويه سمعته ويفتحون كل الملفات القديمة، وستكون أخباره مائدة دسمة على قنواتهم الفضائية يلوكونها مذيعوهم الحربائيون الذين يتلونون

ما بين لحظة وأخرى حسبما تكون المصلحة.. هو كذلك لابد أن تكون له فضائية خاصة.. هكذا حدثته نفسه..

الطريق من مكتبه الكائن بشارع محي الدين أبو العز إلى حيث المستشفى في بداية طريق مصر الإسماعلية الصحراوي يستغرق حوالي الساعة، اعتاد أن يقود سيارته بنفسه..

لا يحب أن يكون تحت رحمة أحدهم أيًا كان من هو، لا يثق إلا بنفسه، ولا يستحق آخر أن يكون في محل القيادة بدلًا منه، هو لم يحقق ما وصل إليه بتركه الأخرين يقودونه أو يرسمون له خطًا يمشي بمحاذاته..

لم يولد في فمه ملعقة ذهب ولا حتى صفيح، على العكس كان والده يعمل فراش مدرسة، وهو الأبن والأخ الأكبر لاثنتين من البنات.. مات أبوه وهو الابتدائية واضطر أن يبحث عن عمل بعد المدرسة كي يساعد أمه في الإنفاق على البيت، وفي نفس الوقت واصل دراسته حتى تخرج من كلية الحقوق بتفوق..

كان يحلم أن يحصل على وظيفة وكيل نيابة.. لكن وظيفة والده رغم رحيله كانت عقبة في سبيل تحقيق ذلك..

شعر ساعتها بحقد على الدنيا بكل ما فيها ومن عليها وأقسم أن يكون القانون الذي عشقه يوما ما وحلم أن يكون العدل محرابا له، سيكون هذا القانون لعبته وسلمه نحو القمة.. ثم بدأ رحلة البحث عن عمل بشهادته لكنه فشل، فاضطر للعمل نادل في أحد الملاهي الليلية، ومن هنا كانت البداية الحقيقة لتبديل جلده حيث أتاحت له وظيفته الجديدة أن يكون بالقرب من طائفة أعلى من البشر، رجال أعمال وأصحاب النفوذ وتجار وأهل فن وغيرهم..

عرف كل واحد فيهم وعكف على دراستهم ومعرفة كل ما يستطيع عنهم وعن تفاصيل حياتهم، ثم كانت الخطوة التالية أن تقرب لواحد منهم اختاره بعناية، محام شهير ذائع الصيت، مكتبه لا يتعامل إلا مع كبريات القضايا وملفات الفساد، كانوا يقولون عنه أنه يستطيع أن يحصل على البراءة مهما كان نوع القضية، لا يعترف بقانون ولا بأخلاق.. فقط يعترف بمن يدفع أكثر ويقدر خدماته..

تقرب منه أكثر من غيره.. واستعان بكل طريقة لارضاءه وتلبية نزواته.. وفي اللحظة المناسبة طلب منه أن ينتقل للعمل معه في مكتبه، وافق الرجل..

كان لديه يقين أنه سيوافق بعد أن عرف عنه الكثير والكثير..

وبالفعل التحق بالعمل في مكتبه واستطاع في فترة وجيزة أن يكون ساعده الأيمن والأهم في المكتب رغم وجود فريق من المحامين قبله..

وطوال هذه المدة كان مستمر في ارضاء نزواته ورغباته أيًا كانت حتى يضمن إحكام قبضته عليه أكثر وأكثر..

ثم جاءت أخيرًا الخطوة الأهم والأكبر في رحلته نحو القمة.. تزوج من ابنة هذا المحامي المشهور ..

كان كل من حوله لا يفهم كيف استطاع أن يمتلك زمام الرجل للدرجة التي يوافق أن يزوجه ابنته الوحيدة بهذه البساطة.. لكنه كان يعرف جيدًا ماذا يفعل وأين يذهب.. تحمل ابنته المدللة وتحمل سلاطة لسانها وسخافتها ودلعها اللزج ..

لم يرزق منها سوى بفريدة.. التي جاءت رغمًا عنه.. لم يكن يريد لهذا الزواج أن يثمر عن أي روابط تعوق خطوته القادمة.. والتي جاءت مع وفاة هذا المحامي.. حيث سيطر هو على المكتب وورث كل عملائه وجميع أسرارهم..

وأخيرًا طلقها... تخلص منها باعتبارهم من مخلفات مرحلة انتهت من حياته.

كانت فريدة حينها في السادسة عشر من عمرها.. وللأسف قد ورثت الكثير من طباع أمها المتمردة..

احتفظ هو بفريدة.. هي كل ما يعيش من أجله الآن.. كان يخطط أن يحاول أن يخلصها مما ورثته عن أمها.. لكنه فشل.. فريدة كانت مستعصية على التغيير .. مدللة لأقصى درجة وعنيدة كحجر صوان.. وبمرور الوقت تباعدت المسافة بينهما أكثر وأكثر خاصة بعد أن ترشح للبرلمان وأصبح عضو بارز ..

استرجع كل هذه الذكريات بينما يجاهد للمرور ما بين السيارات والشاحنات والدراجات البخارية التي يكتظ بها الطريق الدائري في هذه الساعة..

كان يشعر باشمئزاز وامتعاض كبير من هذه الطبقة من المصريين الذين تزدحم بهم الطرق داخل هذه العلب المتحركة المسماة تجاوزًا وسائل مواصلات..

جميعهم يلهث هنا وهناك وكأنهم جراد منتشر يأكلون الأخضر واليابس ولا يكفون عن التذمر والشكوى بل والحسد للآخرين بينما هم راضون بقدرهم وما يحصلون عليه من فتات نهاية كل شهر،طالما التزمت السلبية في كل شيء واكتفيت باللون المحايد فلا تنتقد أوضاع أو تتذمر من مواقف.. هذا هو ما يؤمن به.. تناقض لم يفهمه أبدًا لكنه يكره ذلك التنقاض ويكرههم بسببه أيضًا.. وربما يمقت أكثر من ذلك خنوعهم والذل الذي يعيشون فيه ويذكره بماضيه.. عما قريب سينتقل للعاصمة الجديدة التي لن يجد فيها أمثال هؤلاء..

أخيرًا وصل للمستشفى..

منذ أن وطأت قدمه المستشفى شعر بوجود أمر ما غير عادي.. الجميع يبدو عليهم التوتر خاصة عندهم رأوه..

مسرعًا.. صعد لغرفة الدكتور رشدي.. لم يطرق الباب.. دلف مباشرة..

بالداخل كان الدكتور رشدي ويوسف وهاني واثنين آخرين..

التفتوا إليه جميعًا باضطراب وتوتر..

بادلهم النظرات المتوترة ثم ما لبث أن سأل بقلق:

- في إيه يا رشدي؟!

تردد الدكتور رشدي قليلًا ثم بدا أنه يستجمع شجاعته ثم قالها دفعة واحدة:

- فريدة انتحرت!

*****

# الفصل الثالث

كانت الغرفة وكأنها مقلب قمامة..

تتبعثر في أرجائها بقايا السجائر وأكواب القهوة وأكياس تسوق مختلفة الأحجام والأشكال وكانت زجاجات مياه معدنية وعلب مياه غازية ومشروبات طاقة وغيرها قد تناثرت هي الأخرى.. بينما قطع من الملابس ملقاة هنا وهناك والبعض الآخر يتدلى من أدراج الخزانة المفتوحة على مصراعيها ثم أكثر من حذاء قد تخاصمت أزواجهم..

أنوار الغرفة جميعها مضاء..

أنوار السقف.. المصباحين على جانبي السرير.. وكان هو ملقى على ذاك السرير.. نائم بكامل ملابسه.. بدا نحيلًا بشكلٍ لافت.. قصير شعر الرأس بينما لحيته لم تحلق منذ فترة طويلة..

كان يغط في نوم عميق وكأنه لم يذق النوم منذ أيام.. لولا أنفاسه التي تأن بصوت عال لكان أقرب إلى الجثة منه إلى الأحياء..

مرت دقائق وهو على حاله..

حتى أتت هي.. في العقد السادس من عمرها.. ترتدي جلباب أسود بالٍ وقد شمرت عن ذراعيها وغطت شعرها بإيشارب أزرق باهت.. كانت تمسك بكيس

قمامة فارغ.. نظرت للشاب بضيق ثم دخلت الغرفة بهدوء وأخذت تجمع تلك الأكوام المبعثرة من المخلفات وتضعها في الكيس..

كانت تتحرك بحرص حتى لا تحدث أي صوت قد يوقظه.. لكنها فجاة اصطدمت بأحد زجاجات المياه الغازية على المكتب فسقطت الزجاجة وتهشمت محدثة جلبة عالية..

هنا.. انتفض الشاب صارخًا من نومه وقام جالسًا دفعة واحدة محدقًا بذعر نحو المرأة التي هالها منظره..

- بسم الله الرحمن الرحيم.. مالك يا أسامة.. فيك إيه يا بني..

لم يجبها.. لكنه أخذ يتطلع في أرجاء الغرفة كأنه يحاول أن يتذكر أين هو..

- معلش الإزازة وقعت غصب عني

أردفت..

كان يتصبب عرقًا.. عاد ليلقي جسده على السرير.. انهمكت هي في جمع الزجاج المكسور ولم تعره بالًا.. انتهت ثم اتجهت نحو باب البلكونة.. أوشكت أن تفتحته..

هب من مكانه جالسًا على السرير صارخًا فيها:

- ماتفتحيش البلكونة!

- ليه بس يا بني.. دي ريحة الأوضة مكمكمة وكتمة خالص..

قالتها بضيق

- ماتفتحهاش

كرر أسامة بإصرار

استسلمت وعاودت غلق الباب..

- هي الساعة كام..؟

سألها

- المغرب أذن من شوية.. ما تقوم يا بني اتوضا وصلي كده علشان ربنا يكرمك.. يعني أغيب عنك كام يوم أجي ألاقيك مهدل الدنيا كده

قالت وهي تجمع الملابس

لم يجبها ثانية فعادت لتسأل:

- هو البيه والدك والست والدتك مش نازلين أجازة برضك السنة دي..

نظر لها بنفاذ صبر ثم قال:

- لا يا ستي.. ارتحتي.. بطلي رغي شوية بقى..

أشاحت ببصرها عنه بعتاب ثم قالت:

- كده برضك.. الله يسامحك... لولا إن الست والدتك موصياني عليك كنت ريحتك مني خالص

تنهد بقوة ثم قال مخففًا حدة كلامه:

- حقك عليه يا أم ايمن.. متزعليش.. بس تعبان شوية..

- مهو لازم تتعب.. طول ما أنت بتسهر طول الليل وتفضل صاحي طول النهار ويدوب تنام ساعتين تخاطيف اللي بكون فيهم هنا.. ما تقولي يا بني فيك إيه .. إيه اللي قلب حالك كده يمكن أقدر أساعدك...

نظر لها للحظات وبدا أن لديه الكثير ليقوله إلا أنه لاذ بالصمت.. فما كان منها إلا أن حملت الملابس وكيس القمامة وتركته..

ظل مكانه بلا حراك..

لا أحد يدرك قدر المعاناة التي يمر بها.. فمنذ ذلك اليوم أصبح يخاف الليل.. يخاف أن يرى سواده يتسلل ليلتهم ثنايا يومه.. يخاف أن ينام أو أن يغمض عينيه.. ما ينتظره في نومه من ألم يفوق أضعاف تلك المعاناة التي يعايشها من قلة النوم.. ذات مرة غلبه النوم في الوقت الذي كانت فيه أم أيمن موجودة.. لم يشعر بنفسه إلا وهي توقظه لتخبره أنها قد انتهت من تنظيف البيت وذاهبة... لم يفهم لماذا تمكن من النوم بعمق في وجودها.. ومنذ ذلك الحين ألح عليها أن تأتي كل يوم وينتظر قدومها كي يخلد للنوم...

يحبها منذ صغره.. كان أمه تستدعيها كلما نزلوا إلى مصر في إجازتهم السنوية.. وهو الآن يطمئن بوجودها.. ولا ينام إلى إذا كانت حوله.. لكن إلى متى سيبقى على هذا الحال؟ لا يدري..

يعيش وحيدًا منذ ثلاث سنوات.. منذ أن ترك والديه في الكويت بعد أن أنهى مرحلة الثانوية واستقر في القاهرة ليلتحق بالجامعة.. يراهم في الأجازات.. لكن تلك الأجازات وكأنها وقت مستقطع وسط مباراة حامية.. يطلبها المدرب فقط ليصرخ في لاعبيه من باب تخليص الضمير دون الاكتراث بنتيجة المباراة..

الغربة تأخذ أكثر مما تعطي..

هكذا كان يكرر والده.. تفقدك أحد جيناتك الأصلية الذي يمكنك من التأقلم مع الحياة من حولك في وطنك الأم.. فتبدو تائهًا أبلهًا لا تفقه شيء مما يجري من حولك..

هكذا أيضًا كان يكرر.. ولعله لهذا السبب استسلم أبوه لما تحدثه فيه سنوات الغربة من تشويه لهويته..

الغربة شوهته هو أيضًا...

عندما عاد لمصر وجد صعوبة كبيرة في التعايش مع حياته الجديدة.. منذ ولادته في الكويت وهو يعيش خارج مصر.. ينزل في الإجازات مع والديه ليقضي بعض الوقت مع أقربائه وباقي الإجازة غالبًا ما كان يقضيها في شقتهم بالأسكندرية.. هذه الإجازات لم تعطيه المناعة اللازمة ضد هذه النقلة والتغير المفاجئ في نمط حياته.. بقى أول شهرين في الجامعة شبه منعزل دون أصدقاء.. حتى أنه كان محل سخرية البعض.. بسبب بعض الكلمات الخليجية التي كان يستخدمها أحيانًا دون قصد..

كل هذا انتهى عندما تعرف على عماد..

صديقه الأقرب الآن في الجامعة.. مختلف تمامًا.. بدا له مبهرًا في كل شيء، يعرف كل شيء عن كل شيء.. له شخصية مسيطرة وقوية.. عنيف وعدواني أحيانًا.. استطاع عماد أن يكسبه تلك المناعة للتعايش في فترة قصيرة.. خلال الشهور الأولى لعلاقتهما جعله يفعل ما لم يتخيل أن يفعله في حياته.. والأهم أن عماد استطاع أن يملىء جزء من هذا الفراغ الذي تركه والداه في بعدهما عنه..

- أنا خلصت يا ابني وماشية.. الأكل عندك في المطبخ..

قطعت بها أم أيمن حبل أفكاره فالتفت إليها وأومأ دون كلمة..

انصرفت..

التقط هاتفه المحمول.. مكالمات فائتة من عماد.. ورسالة واتساب .. "انت فين يا ابني.. كلمني ضروري"

لم تكن الرسالة غريبة على طريقة عماد.. هكذا اعتاد منه ولم تعد مثل هذه الرسائل التي تبدو عاجلة تثير في نفسه أي فضول أو قلق.. لكنه في نفس الوقت لا يمكنه تجاهله..

اتصل على عماد..

- انت فين يا هباب انت..

سبقته كلمات عماد المتوترة..

- في إيه ياعم.. إهدى عليه مالك؟

- كلمتك كذا مرة وانت ولا أنت هنا.. المهم...

سكت قليلًا ولم يكمل

- المهم إيه؟

سأل أسامة بقلق...

جاوبه الصمت الذي طال حتى ظن أن عماد لم يسمعه لكنه قال أخيرًا متوترًا:

- عاوزك توصف لي اللي بتشوفه بالظبط..

- اشمعنى يعني.. منا حكيت لك كذا مرة قبل كده وانت شايفني أهبل

عاد عماد ليصمت.. هذه المرة يتحمل أسامة فقال بخوف:

- أوعى تكون أنت كمان..؟

لم يجب عماد.. لكن أسامة تأكد أن من إجابته التي لم ينطقها.. لقد بدأت للتو معاناة عماد.. الأكبر.. والأكثر رعبًا في حياته!

*****

خيم صمت القبور في غرفة الدكتور رشدي

كان حسين الغانم يجلس شاخصاُ وقد تحجرت مقلتاه في غضب يجاهد لحجز دموع أب مكلوم .. لم يقدر أحد على محادثته بكلمة منذ قرابة النصف ساعة بعد أن هدأت ثورته بشكل مفاجيء وجلس كتمثال

- وحد الله يا حسين بيه..

أخيرًا تحدث الدكتور رشدي بنبرة منخفضة

لم يظهر أي تأثير على حسين الغانم فاستطرد الدكتور رشدي:

- إحنا مقدرين و..
- حد عرف بالخبر ده؟!

قاطعه صوت حسين الغانم .. كان يتحدث بغضب مكتوم.. تبادل الدكتور رشدي نظرات جانبية مع يوسف وهاني ثم حاول أن يتماسك وهو يقول:

- هو إحنا لسه طبعًا مبلغناش بس المفروض نبلغ علشان نخلي مسئ
- مش هتبلغ يا رشدي

قاطعته صرخة حسين الغانم وهو يحدجه بنظرات نارية..

- مش فاهم سعادتك تقصد إيه؟

تلعثمت الكلمات على لسان الدكتور رشدي ..

- لا فاهم.. مفيش مخلوق هيعرف باللي حصل

صاح حسين الغانم بنبرة تهديد وهو يرمق الجميع بغضب..

حاول الدكتور رشدي أن يقول شيئًا ما.. لكن فجأة تحدث يوسف بثبات:

- إحنا مقدرين اللي حضرتك حاسس بيه بس ده إجراء رسمي لازم نعمله!

التفت هاني ورشدي ومعهم حسين الغانم نحو يوسف وقد تباينت ردود أفعالهم..

- الظاهر إن سعادتك أطرش أو غبي ما بتفهمش؟

صاح حسين الغانم بغضب

جاهد يوسف ليتمالك أعصابه ونظر نحو حسين الغانم بذات الثبات:

- لولا الظرف اللي حضرتك فيه أنا كان ممكن أرد بشكل مختلف.. واسمح لي أقولك إن حضرتك اللي مش فاهم.. إحنا لازم نبلغ لأن ده اللي لازم يتعمل في الحالات دي، غير كده في اجراءات لازم تتعمل قبل دفن المرحومة

كانت راية التحدي التي رفعها يوسف واضحة للجميع..

- إيه التخريف اللي بتقوله ده!

صاح حسين في غضب.

عقد يوسف حاجبيه في ضيق وقال:

- سعادتك ياريت تحاول تتماسك أعصابك شوية

اقترب منه حسين الغانم ونظر في عينيه مباشرة وصرخ: بنتي ماتت موتة ربنا.. وده اللي هيتكتب في شهادة الوفاة.. وأي حد هيقول غيره كده هخسف به الأرض..

ساد الصمت بعد كلمات حسين الغانم الأخيرة.. بدا عليه أنه على شفا الانفجار..

انتقل يوسف ببصره تجاه الدكتور رشدي فلم يجد منه ما يوحي بأن لديه ما يعترض به على ما قاله حسين الغانم..

*****

للمرة العاشرة عادت "هند" تطالع نفسها في المرآة.. كانت قد أمضت ساعتين تقريبًا وهي تضع مساحيق ومستحضرات التجميل بعد أن أمضت ساعتين قبلهما في اختيار ما سوف ترتدي..

لا تستطيع أن تصدق أنها قد تمكنت أخيرًا من إقناع والديها بالسماح لوائل ووالدته بزيارتهم الليلة.. وائل هو حب عمرها الحقيقي الذي لم تكن تصدق أنها قد تقابله يومًا من الأيام.. يعمل مهندس ديكور.. التقت به مصادفة أثناء قيامه بعمل التصميمات في فيلا صديقتها إيمي، منذ اللحظة الأولى التى رأته فيها شعرت بقلبها يدق بعنف.. كان يبدو جادًا ودقيقًا في عمله وهو ما جعلها تنجذب إليه بشدة، بدا لها مختلفًا ومميزًا عن كل من حولها من شباب لا يقدر قيمة المشاعر ولا يرى في البنت إلا وسيلة للتسلية والمتعة.. هكذا شعرت وهكذا تأكدت فيما بعد..

اليوم سيتقدم لخطبتها..

تمكنت بعد رفض طويل من إقناع والديها بالموافقة على ارتباطهما، ولعل ما ساعدها في مهمتها هو تميز وائل في عملها وشهادة الجميع له بأنه مثال للشاب الناجح والطموح والذي بدأ من الصفر حتى أسس مكتبه الخاص..

طرقات ناعمة على الباب.. دون أن تلتفت قالت بسعادة.. اتفضلي يا مامي..

ابتسمت لها أمها بحب:

- والله قمر.. يلا بقى تعالي علشان وائل ومامته قاعدين بقى لهم شوية ميصحش كده..

نهضت من أمام المرآة واتجهت نحو أمها بفرحة غامرة:

- أنا فرحانة أوي يا مامي.. حاسة إن قلبي هيقف من الفرحة..

- بعد الشر عليكي يا حبيبة مامي.. يلا بقى

ثم ضمتها بحنان وهي تقاوم دموعها..

خرجتا معًا وقد أمسكت كل منهما بيد الأخرى..

كانت هنا تشعر أن صوت دقات قلبها أعلى من صوت كعب حذائها العالي.. ابتسمت لنفسها من الفكرة..

اقتربا من غرفة الصالون حيث يجلس أبوها مع وائل ووالدته..

فجأة بدأت تشعر بتوتر وقشعريرة باردة تسري في جسدها حتى أنها توقفت لثوان.. التفتت لها أمها وأومأت لها بابتسامة مشجعة ثم تقدم نحو الغرفة..

تبعت أمها بخطوات مترددة.. لا تدري ما أصابها.. كانت تستطيع أن تسمع أمها تردد بعض من كلمات الترحيب التقليدية.. مع اقترابها من الباب كانت قد أصبحت تشعر بصعوبة بالغة في التنفس..

أخيرًا دخلت إلى الغرفة.. كان والدها يجلس مبتسمًا لها وقد جلست أمها عن يمينه

- أهلًا بعروستنا.. تقلانة علينا ليه يا قمر..

قالتها والدة وائل..

التفتت لها بابتسامة جاهدت في رسمها..

وما أن انتقلت ببصرها تجاهها حتى برقت عيناها في رعب..

لم تكن أم وائل السبب...

بل كان ما رأته يجلس بجوارها..

لما يكن ذاك الجالس هو وائل أبدًا..

كان مسخًا مرعبًا..

مسخًا غير بشريًا بالمرة...

مسخًا شيطانيًا..

واخيرًا انطلقت صرختها لتصم آذان الجميع..

ثم سقطت مغشيًا عليها!

*****

جلس أسامة قبالة عماد يتأمل ملامحه في توتر، كان يبدو مختلفًا، لقد خفت ذلك البريق الذي اعتاد أن يراه في عينيه، كما غابت تلك الابتسامة الساخرة الغير مكترثة بأي شيء التي دائمًا ما يرسمها على شفتيه اللتان اسودتا بفعل السجائر التي لا تفارقهما..

كثيرًا ما تساءل هل هذه الابتسامة طبيعية أم أنها لاإرادية بسبب خلل في عضلات الشفاه اللتان لا تتوقفان عن شد الأنفاس بأنواعها ومختلف ألوانها..

- انت هتخليك قاعد متنحي لي كده.. إيه شايف عفريت؟

وأشعل سيجارة أخرى التقمتها شفتاه بتوتر..

حرك أسامة رأسه يمينًا ويسارًا محاولًا التخفيف من ذلك الألم في رقبته..

- لا بس حاسس إنك متغير .. هو في إيه؟

نفث عماد دخان سيجارته في ضيق ثم أراد أ يقول شيئًا غير أن سعلة قوية داهمته فارتج لها جسده بعنف.. بسرعة نهض أسامة وناوله زجاجة مياه معدنية... شرب عماد شربة خاطفة ثم أخذ يلهث للثوان..

- عاوزك تقولي بتشوف إيه بالظبط؟

خرجت كلماته منهكة متوترة، فنطر له أسامة بتردد ثم سأل: أنت شفت إيه؟

تنهد عماد بضيق:

- يا بني أنا اللي بتهبب بسألك.. خلص.. بتشوف إيه؟
- طيب منا حكيت لك قبل كده
- معلش احكي تاني..

بدا أسامة مترددًا منزعجًا.. استحضار هذه التفاصيل يصيبه بخوف وهلع لا يقل عن ذلك الذي يشعر به حينها..

- أنا من الأول مكنتش موافق على الفكرة الهباب دي!

قالها أسامة بحسرة

- يووووه.. ما تخلص يا أسامة.. أنت هتقعد تولولي زي النسوان..

صاح عماد ممتعضًا.. بادله أسامة نظرة الامتعاض وقال:

- نسوان.. طيب شوف نفسك الأول عامل إزاي وبعدين كلمني عن الولولة..

رمقه عماد بغضب ولم ينطق بكلمة، لكنه أمسك علبة السجائر أمامه وضغط عليها بقوة ليحولها لكتلة منبعجة ثم قذفها بعيدًا بقوة..

أشاح أسامة ببصره بعيدًا وقد شعر بانقباض يعصر رئتيه..

*****

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء بينما يوسف لازال في مكتبه بالمستشفى، كان يشعر أنه المسئول الأول عن موت فريدة، أليس هو الطبيب المعالج لها، كان يفترض به أن يحميها ويكون بجانبها... لا يدري سببًا لذلك الرابط الغامض الذي شعر به تجاه فريدة منذ رآها أول مرة.. هو لم يلتقي بها سوى مرتين.. لا ثلاثة.. تلك المرة التي رآها في حلمه.. تذكر كلماتها .. شوفتك إمبارح!

كيف؟

ما الذي كانت تعنيه؟

حسين الغانم كان قد أنهى اجراءات استخراج تصريح دفن الجثة بسرعة من خلال علاقاته، هز يوسف رأسه في أسى .. حتى الدفن أصبح بواسطة!

طالع ساعته فانتبه أخيرًا للوقت..

أخذ يجمع حاجياته في كسل..

خرج من غرفته.. الهدوء هو السائد كعادته في هذا الوقت..

مشى ببطء.. مر أمام الغرفة التي كانت مخصصة لفريدة.. ألقى نظرة على الغرفة بضيق.. كاد أن يكمل طريقه غير أنه توقف فجأة..

اقترب من الغرف.. هُيئ إليه أنه يسمع صوتًا آت من الغرفة.. عقد حاجبيه متعجبًا.. هل يُعقل أن يكون هناك حالة جديدة لم يعلم بها آتت إلى المستشفى.. غير معقول!

الصوت كان أقرب ما يكون من نحيب مكتوم..

شعر بتوتر في عضلاته بينما يمد يده نحو المقبض .. أداره فانفتح بسهولة..

الغرفة غارقة في الظلام.. توقف الصوت.. هم بإغلاق الباب لكن فجأة شعر بقبضة قوية تمسك يده وتجذبه داخل الغرفة المظلمة.. شهق بقوة من هول الصدمة.. نظر حوله.. ليس هناك من مخلوق.. كانت دقات قلبه تتسارع محدثة جلبة في صدره تهتز لها جميعا أركانه..

امتدت يده ببطيء محاولًا تشغيل أضواء الغرفة.. أخيرًا وصل لمفتاح الإضاءة... ضغط عليه.. لا شيء.. الأضواء لا تعمل..

تراجع للخلف وقد تملكه الخوف..

حاول فتح الباب.. المقبض هو كذلك يأبى أن يتجاوب معه..

فجأة عاد صوت النحيب.. هذه المرة من زاوية الغرفة.. عند النافذة.. التفت تجاه الصوت .. لم يصدق ما يرى.. كانت فريدة واقفة هناك تنظر من النافذة كما رآها بالأمس..

لم يتمكن من السيطرة على تلك الرجفة التي سرت في أوصاله..

التفتت من بدا أنها فريدة نحوه ببطء..

ما أن رآها حتى شهق للمرة الثانية بقوة.. لم تكن هذه فريدة التي يعرفها.. تبدلت ملامحها تمامًا.. صارت جثة بلا حياة يختلط لونها ما بين الأزرق الشاحب والأسود..

تعجب كيف يراها رغم ظلمة الغرفة..

فجأة رفعت فريدة يدها ببطئ مشيرة لشيء ما خلفه..

ارتعد يوسف بشدة وهو يدير رأسه تجاه ما تشير إليه.. اصطدمت عينيه بذلك الشيء .. شيء لا يمكن وصفه بأكثر من سواد .. سواد ليس له معالم.. وفجأة أظلم كل شيء في عينيه!

*****

- يعني إيه عندها صدمة عصبية؟ من إيه وليه و ازاي؟

رددت والدة هند كلماتها بدهشة أوقفت دموعها التي لم تتوقف منذ أن سقطت هند مغشية عليها..

هز والد هند رأسه في حيرة:

- معرفش.. ده الكلام اللي الدكتور قاله.. هو نفسه مستغرب وسألني لو كان في حاجة مضايقاها.. هو كتب لها على مهدئ بس بيقترح يكلم دكتور نفسي صاحبه يجي يشوفها..

التفتت له مصدومة:

- دكتور نفسي ليه! هو أنا بنتي مجنونة.. أوعى يكون أهل وائل سمعوا الكلام ده..

هز رأسه بالنفي:

- لا متقلقيش.. هو قالي الكلام ده بيني وبينه.. اللي قالوا قدامهم إنها بس محتاجة شوية راحة ويمكن تعبت نفسها زيادة عن اللزوم..

ألقى نظرة على هند المستغرقة في النوم.. ثم همس قائلًا:

- يلا تعالي معايا نعتذر للناس.. وبعدين نشوف هنعمل إيه..

طبعت قبلة حانية على جبين ابنتها ثم قامت من مكانها وخرجا سويًا من الغرفة..

بقت هند ساكنة كما هي .. أنفاسها منتظمة هادئة.. لكن ذلك لم يدم سوى ثوان..

ما لبث أن بدأت تحرك عينها المغمضتين في توتر مفاجئ وكأنها ترى شيئًا ما..

أنفاسها تتسارع وصدرها يعلو وينخفض بقوة..

أخذت ملامح وجهها تضطرب ألمًا وخوفًا.. ثم أخذت تصدر أصوات أنين مكتومة..

فجأة.. فتحت عينيها دفعة واحدة ونهضت جالسة على سريرها تحدق أمامها..

راحت تلتفت يمينًا ويسارًا بهلع..

ثم تعود لتنظر للأعلى..

واخيرًا

راحت تنزل ببصرها متابعة شيئًا ما..

ثم..

أخذت تنكمش في سريرها وتتراجع للوارء..

أكثر وأكثر..

وأخيرًا..

انطلقت الصرخة!

*****

صباح اليوم التالي ..

- وبعدين؟!

نظر يوسف بتساؤل لسارة التي كانت تستمتع له بتوتر وضيق بينما يقص عليها ما حدث بالأمس في غرفة فريدة المستشفى..

- هو إيه اللي بعدين؟ لا بعدين ولا قبلين.. منا قاعد قدامك أهو.. كل اللي حصل.. تفتكري ده كان إيه؟!

كانت سارة تطرق بإصبعها بضيق على الطاولة بتوتر ثم قالت بصوت جاهدت كي يكون خافتًا..

- يعني حضرتك كلمتني في شغلي ونزلتني علشان حاجة ضروري.. وجبتني الكافيه هنا علشان تحكي لي على الحلم ولا الكابوس اللي شفت فيه الهانم اللي إسمها فريدة دي.. وكمان بتسألني ده ممكن يكون إيه؟

نظر لها يوسف بدهشة وغضب ثم قال:

- تصدقي أنا بجد اللي غلطان علشان قولت أتكلم معاكي وأحكي لك..

- يا سلام.. بقى ده اللي أنت غلطان فيه بس.. مش غلطان إنك شاغل بالك بواحدة انتحرت لا وبتحلم بيها كمان..

كتم يوسف غيظه ثم قال:

- أولًا ده مكانش حلم.. ثانيًا.. انتي قلتي بنفسك فريدة ماتت.. انتحرت.. يعني مش موجودة أصلًا علشان أفكر فيها..

رفعت سارة حاجبيها وقالت:

- يعني سعادتك كنت بتفكر فيها واللي منعك بس إنها ماتت..

لم يتمالك يوسف نفسه وهم بقول شيئ ما لكنه توقف.. ثم رفع يده وأشار للنادل:

- الحساب لو سمحت!

*****

أشعل عماد سيجارة ثانية ونفث دخانها بضيق ثم نهض من سريره .. اتجه بملل صوب النافذة الكبيرة لغرفته بالفندق الذي انتقل إليه ليلة البارحة، لم يعد قادرًا على البقاء بمفرده في بيته.. على الأرجح لن ينتبه والديه لاختفاءه قبل مرور بضع أيام.. أو ربما أحد الخدم يخبرهم..

والده طبيب قلب مشهور.. لديه أكثر من عيادة.. لا يجد وقت لحك أنفه.. وأمه هي كذلك ليس لديها أي وقت له.. منذ أن قام الده بافتتاح ذلك الكافيه لها بالشيخ زايد وهو لا يكاد يراها إلا بالصدفة... الجميع مشغول.. والجميع يغني على ليلاه

ما فائدة البيت إذن.. إن لم يكن به ذلك الدفء الذي يبعث الحياة في القلوب؟!

لا فرق بين البيت والفندق بالنسبة له..

فقط مكان للنوم وقضاء بعض من الليل أو النهار في السرير..

غير أن الفندق هنا.. به نوعًا ما من الإثارة والغموض.. غموض لا يتوقف متى فكر فيه.. هذا السرير الذي قضى عليه ليلته.. لايدري من كان هنا قبله في الليلة الماضية.. وكيف قضاها.. بل كم الليالي رآها ذلك السرير الذي لا يبوح بأسراره..

لكن مع هذه الإثارة التي يشعر بها لازالت هناك فروق تضايقه.. لا يحب رائحة ملاءات السرير النظيفة المغسولة بمساحيق ومنظفات نفاذة.. فلا يجد فيها غير تلك الروائح المزعجة الجامدة.. فلا رائحة عرق أو طفية سجائر أو عطر من أي نوع

كذلك السجاد والموكيت .. يبدو نظيفًا للوهلة الأولى لكن لو دقق النظر في الزوايا والأركان أو تحت السرير ربما.. لا يدري.. لن يكون أبدًا كما يبدو

هذا النظام والترتيب المبالغ فيه للغرفة حين دخولها لأول مرة.. يشعره أنها بلا حياة.. كل شيء في مكانه بشكل يدعو للتوتر.. يجعله يتردد قبل أن يحرك شيئًا ما من مكانه..

ابتسم لتفكيره الفلسفي.. ذلك التفكير الذي يختفي حول قناعه العابث الغير مكترث لشيء.. كل من حوله يراه هكذا.. عماد باشا.. الدماغ العالية أبو قلب ميت.. بينما الحقيقة أنه يختبئ وراء هذا الآداء ليخفي ضعفه واحتياجه للحياة الحقيقية..

وأخيرًا تلك الأمور التي تحدث له هذه الأيام..

في البداية ظن أن ما يحدث مجرد هلاوس بسبب سجائر البانجو التي لا تكاد تفارقه..

لكن الأمر لم يبدو أبدًا كتلك الهلاوس التي اعتادها وقت الضرب..

لقد أصبح يرى طوال الوقت خيالات مخيفة تظهر وتختفي فجأة..

ثم الأصوات.. أصوات صرخات مرعبة ومفاجئة تدوي في أذنيه.. عندما اتصل بأسامة كان يتمنى أن يجد عنده أي تفسير لما يجري.. لكن ما حدث أنه زاد من حيرته ومخاوفه..

لذلك قرر أن ينفرد بنفسه بعيدًا عن الجميع..

راح يطالع البنايات المحيطة بالفندق وشوارع القاهرة المزدحمة وكأنه يبحث عن شيء ما..

عاد للغرفة ثم التقط منظار مكبر من على طاولة صغيرة بجوار السرير..

وضعها أمام عينيه..

توارى قليلًا وراء الستارة..

نظر بتركيز..

- أوباااا... حلاوتك.. يخرب بيت كده!

فجأة سمع طرق على الباب..

- ده وقتك يابن الفقرية!

اتجه للباب وفتحه بسرعة..

خدمة الغرف مع الإفطار.. أعطاه عشرين جنيه على عجل.. عاد بسرعة للنافذة مع منظاره ليصوبه نحو نفس البناية..

- مش قلت لك فقري ابن فقرية..

أخذ يجول بمنظاره في مختلف الاتجاهات.. فجأة توقف وتسمر في مكانه.. المشاهد عبر المنظار كانت قد تغيرت.. الظلام حل بصورة مفاجئة.. رفع عينيه بعيدًا لينظر حوله.. كانت الغرفة غارقة في الظلام..

بينما ليل القاهرة تتلألأ أضواءه ..

ازدرد ريقه بصعوبة غير مدرك ماذا جرى وكيف..

نظر في أرجاء الغرفة..

وعلى ما تسلل من أضواء الخارج.. رأى إفطاره كما هو.. لم يلمسه.. هناك على الطاولة!

*****

كان والد هند يراقب الدكتور سعيد الطبيب الخاص بابنته وهو يتبادل حديثًا خافتًا مع الطبيب النفسي الذي انتهى لتوه من رؤية ابنته.. كان يبدو أن الأمر غير مطمئن.. انتهى حديثهما ثم التفت له دكتور سعيد وقال:

- معلش طولنا على حضرتك..

رد والد هند بقلق: خير يا دكتور طمني..

تبادل الطبيبان النظرات ثم قال دكتور سعيد:

- زي ما قلت لحضرتك.. الأفضل ننقل هند لمصحة نفسية.. اعتبرها فترة استجمام ترتاح فيها وتكون تحت الملاحظة بصورة أكبر..

- يعني ده اللي حضراتكم شايفينه..

ردد والدها في حيرة

ابتسم الطبيب النفسي المرافق للدكتور سعيد: اطمن خالص حضرتك.. الأنسة هند هتكون بخير .. مجرد كام يوم ترتاح فيهم عندنا ونطمن عليها..

تنهد والد هند بضيق ثم قال بيأس:

- اللي تشوفوه.. رغم إن مامتها مش هترتاح خالص للحكاية دي...

صمت ثوان ثم أردف: متشكر يا دكتور سعيد..

ثم التفت للطبيب النفسي:

- معلش مسألتش حضرتك عن إسمك.. سامحني..

ابتسم له الطبيب النفسي وقال بهدوء:

- أبدًا مفيش حاجة.. دكتور هاني.. هاني كمال!

*****

# الفصل الرابع

وقف يوسف يتأمل أحد اللوحات المعلقة داخل غرفته في المستشفى.. تلك التفاصيل الصغيرة في اللوحة تجذب انتباهه.. لا يهتم كثيرًا بالمعالم الرئيسية في اللوحات.. دائمًا ما يذهب بعينيه لما وراء هذه المعالم.. ربما الخطوط أو الألوان المنزوية بخجل في مكان ما لديها أكثر ما تظهره الحقيقة البارزة للجميع.. وهكذا يفعل مع الحداث والمواقف من حوله، يحاول أن يرى مالا يراه الآخرون..

هل فريدة انتحرت؟!

سؤال يلح عليه بإزعاج ذبابة عنيدة؟

الظاهر أنها انتحرت... لكن ما السبب؟ لابد أن هناك تفاصيل خفية وراء هذا الأمر.. تفاصيل منزوية لديها تبريرات.. الشيطان يكمن في التفاصيل.. هكذا يقولون!

لكن هل لدى هذه التفاصيل تفسير لما رآه وعايشه ليلة أمس في غرفتها؟ هل أصابته الهلاوس وأصبح يحتاج أن يكون نزيلًا في المستشفى بدلًا من أن يكون طبيبًا؟ أم تولدت لديها قدرات فوق حسية هو الآخر..

فقط لو أمهله القدر بعض الوقت مع فريدة.. ربما كان اكتشف طرف خيط يقوده لبعض الحقيقة..

عاد ليجلس على مكتبه، أمسك ورقة وأخذ يدون ويعيد ترتيب الأحداث في محاولة للعثور على تفصيلة هنا أو شاردة هناك

- البداية.. فريدة آتت للمستشفى بعد محاولة انتحار مزعومة..
- ثم.. رآها مستغرقة في النوم بعد إعطاءها مهدئات قوية ثم قامت فجأة مرعوبة تشير فيما يبدو لشيء ما..

- ثم.. رأها تطفو في سقف غرفته في حلمه أو ما يعتقد أنه حلم.. ثم تقول له في اليوم التالي "شوفتك إمبارح" تُرى ما الذي كان تقصده؟

- يوم انتحارها..

توقف قليلًا يفكر.. ما الذي حدث يوم انتحارها.. كان في مكتبه مع هاني يشربان القهوة.. اتصل عليه الدكتور رشدي وطلب حضوره لمكتبه بشكل عاجل.. قبل أن يصل لمكتبه قابلته فايزة الممرضة وأخبرته أنها وجدت فريدة قد انتحرت.. هرع إلى غرفة فريدة مسرعًا.. ما رآه هناك لا يمكن وصفه.. فريدة انتحرت بطريقة مخيفة.. كانت مسجاة على ظهرها وسط الغرفة كالمومياء.. عينها جاحظتان بصورة بشعة.. بينما تحولت بشرتها لزرقة قاتمة.. فمها مفتوح عن آخره تبرز خارجه قطع قطن امتزجت بلعاب أصفر وقد ابتلعت أجزاء كبيرة من حشوة الوسادة في غرفتها.. وكان واضحًا أنها استخدمت أسنانها في تمزيقها وكأنها تحولت إلى حيوان مفترس

كيف تمكنت من فعل ذلك؟

هل كانت هي حقًا تلك الحالة التي ينقب عنها منذ سنوات.. هل معقول أنه كان قريبًا لهذه الدرجة من العثور عليها!

عقد حاجبيه بشدة في حيرة وضيق

ثم لماذا استدعاه دكتور رشدي بصورة عاجلة؟

هناك أمر غامض!

لقد انشغل الجميع بما حدث بعد ذلك ووصول والد فريدة الذي أصر على عدم إبلاغ الشرطة وجرى كل شيء بعدها بسرعة دون أن يفكر في هذه الأسئلة المهمة..

كل هذا الغموض جعله يشعر بالضيق والإحباط.. حالة فريدة كانت ولاشك مثالية لأبحاثه.. لكنها ضاعت من يده!

نهض من مكانه فجأة وطوى الورقة ووضعها في جيبه وخرج من مكتبه متجهًا لمكتب دكتور رشدي.. مشي بخطوات مسرعة ومر من أمام الغرفة التي كانت مخصصة لفريدة.. لفت انتباهه وقوف هاني أمام الغرفة يتحدث مع شخصٍ ما يبدو عليه التوتر..

توقف يوسف .. أومأ برأسه بتحية مع ابتسامة مصطنعة:

- دكتور هاني.. خير.. في حاجة؟!

بادله هاني الابتسامة المصطنعة وقال:

- أهلًا دكتور يوسف.. ده الأستاذ علي شاكر.. والد الآنسة هند.. أعصابها تعبانة شوية هتقعد معانا كام يوم نطمن عليها

قالها وهو يومأ برأسه ناحية غرفة فريدة..

مد يوسف يده مصافحًا ومبتسمًا:

- بإذن الله تكون بخير..

صافحه الرجل وشكره بعبارات متوترة

انصرف يوسف وبداخله يشعر بضيق.. لماذا في غرفة فريدة بالذات؟ هل هاني فعلها عمدًا؟!

لا يدري..

وصل لغرفة الدكتور رشدي..

دق الباب ودخل..

كان الدكتور رشدي يتحدث في الهاتف.. أشار له فجلس.. مرت دقيقتان والدكتور رشدي منهمك في مكالمته.. من الواضح أن المكالمة مع أحد معدين البرامج الفضائية..

التزم الصمت والصبر حتى أنهى المكالمة..

- أيوه يا يوسف.. في حاجة؟

- لا بس كنت افتكرت حاجة كده حبيت أسأل حضرتك عليها.. حضرتك قبل ما نعرف إن فريدة انتحرت كنت اتصلت بيه علشان حاجة ضروري.. وبعدين اتشغلنا في اللي حصل ومعرفتش حضرتك كنت عايزني في إيه..

مط الدكتور رشدي شفتيه وتنهد بقوة..

- صحيح.. هي كانت حاجة غريبة فعلًا.. بس اللي حصل نسانا الموضوع.. كان في حد سرب خبر وجود فريدة عندنا في المستشفى لواد صحفي وكان هينشره.. لولا حسين الغانم عرف مش عارف إزاي ولحقه.. وكان جاي المستشفى وناوي يطربق الدنيا على دماغك.. لولا فريدة الله يرحمها بقى رحمتك وانتحرت..

- على دماغي أنا..ليه؟!

سأل يوسف بدهشة..

- الواد الصحفي قال إنك أنت اللي سربت الخبر.. طبعًا أنا دافعت عنك وقولت لحسين الغانم مستحيل يوسف يكون عمل كده..

عقد يوسف حاجبيه بضيق شديد:

- مستحيل طبعًا.. حضرتك عارفني كويس وعارف إني مش ..

- عارف طبعًا.. على العموم الموضوع اتقفل.. بس ده ما يمنعش ناخد بالنا علشان ما يتكررش تاني..

قاطعه دكتور رشدي وهو يقوم ويلتقط جاك بدلته ويرتديه..

- هو حضرتك ماشي..

سأل يوسف

- أيوه عندي تسجيل حلقة في البرنامج.. في حاجة ضروري

- لا خلاص بعدين.. بس هو في حالة جديدة جت في أوضة فريدة؟

علت ملامح الاستغراب وجه الدكتور رشدي:

- أوضة فريدة؟

استدرك يوسف موضحًا:

- قصدي الأوضة اللي كانت فيها فريدة.. حالة تبع هاني

هز الدكتور رشدي رأسه مستوعبًا ما يقصد يوسف وقال:

- آه أيوه.. في حالة جديدة فعلًا هاني قالي عليها بسرعة كده.. عمومًا خليه هو يتابعها علشان نرتاح شوية من الزن بتاعه.. بس خليك معاه من بعيد لبعيد كده.. فاهم طبعًا

أومأ يوسف برأسه في صمت بينما يفكر.. من ذلك الصحفي ولماذا قال ما قال!

*****

شعرت سلمى بإرهاق شديد ولم تعد قادرة على مواصلة التحديق في الكتاب الذي أمامها بعد أن تشابكت وتداخلت الحروف فيما بينها، فركت عينيها بكسل ثم ألقت نظرة على ساعة الهاتف المحمول التي اقتربت من العاشرة مساءً ولم يزل أخيها يوسف غير موجود، كانت تنتظره منذ ساعتين حسبما أخبرها منذ اتصلت به، تحتاج منه بعض المساعدة في بحث هام ستقدمه غدًا في الكلية..

نهضت من مكتبها متثائبة ثم خرجت للصالة.. أمهما نامت مبكرًا كعادتها.. وقفت مترددة تفكر.. ثم توجهت نحو غرفة يوسف.. أضاءت نور الغرفة ثم توجهت نحو المكتبة الكبيرة التي تحتل حائط كامل..

دارت بعينيها بين عناوين الكتب التي تنوعت بين كتب طبية وكتب في الفلسفة وعلم النفس والتاريخ إضافة لركن خاص تراصت فيه الكثير من الجرائد والمجلات العلمية الأجنبية القديمة..

يوسف لا يحب العبث في كتبه لكن الأمر طارئ ولابد أنه سيتفهم..

أخذت تمر بسبابتها فوق الكتب حتى توقفت على أحدها.. تنهدت بارتياح وسحبته بحماس فأسقطت معه كتاب أخر بجانبه.. سقط أرضًا وتبعثرت من بين صفحاته بعض الأوراق والصور التي يبدو أنها كانت محفوظة بداخله..

انحنت والتقطت الأوراق والصور ونظرت فيها بدافع الفضول..

عقدت حاجبيها في استغراب وهي تطالع ما دونه أحدهم بخط اليد في الأوراق إضافة لما يبدو كملاحظات وكأنها وصف لكل شخص كتبها على الصور.. صور لأشخاص .. شباب وفتيات من أعمار مختلفة.. ولم تكن الصور في حد ذاتها ما أثار حيرتها لكن اللغة التي كتبت بها هذه الملاحظات.. بعض الحروف تشبه حروف اللغة الإنجليزية والبعض الأخرى رموز غريبة..

لعل هذه الأوراق والصور لها علاقة برسالة الماجستير

لكن لماذا يحتفظ بها بهذه الطريقة؟

مطت شفتيها في حيرة ثم أعادت ما تبعثر إلى حيث كان بين الصفحات وأسكنت الكتاب مكانه مرة ثانية.. وانصرفت!

*****

ظل أسامة مترددا لثوان في النزول من سيارة التاكسي التي أوصلته أمام منزله حتى أن السائق نظر له باستغراب:

- في حاجة يا باشا.. عندك مشوار تاني ولا إيه؟

فتح أسامة الباب بضيق ثم نزل دون أن يرد بكلمة

- تصدق إنك شاب بسكلته

لم يلتفت للسائق الغاضب الذي أكمل وصلة الشتائم وشاركته سيارته السباب بزعقة صرير مزعج امتزج مع صوت منخار السائق المحتاج..

كانت لحظة الرجوع للبيت هي اللحظة التي يخشاها طوال اليوم، ويحاول دائمًا الهروب منها وكأنه ذاهب إلى حتفه، يتعلل ويتلكأ ويتسكع هنا وهناك كل ليلة كي لا يواجهه تلك اللحظة.. لكن اليوم لم يجد من يقضي معه الليل وعماد هو كذلك انصرف عنه ولم يتمكن من الوصول إليه، كما أن الإرهاق والتعب الذي يشعر به لم يعد يفلح معهما أي من الحبوب أو المنبهات التي يتناولها، وضع يده في جيبه يتحسس شريط حبوب الزاناكس الذي أعطاه له أحد أصدقاءه:

- بص يا معلم .. خد حبيتين من ده وهتدعيلي.. وهتنام وتشخر للصبح!

وقف أمام باب الشقة مترددًا وقد تشنجت عضلاته ذراعه وهو يمد يده بالمفتاح المرتعش ليفتح الباب، دلف داخل الشقة..جميع الأنوار مضاءة كما اعتاد أن يتركها...

أغلق الباب ..

حاول جاهدًا أن يتمالك أعصابه واتجه مباشرة لغرفته.. كانت الغرفة على غير الحال التي كانت عليه بعد أن قامت أم أيمن برفع الأنقاض والمخلفات التي تركها في فترة غيابها عنه الأيام الماضية، تمنى لو كانت موجودة الآن..

وضع يده داخل جيبه وأخرج شريط الحبوب.. ضغط على اثنين منهما ثم قذف بهما في فمه بسرعة.. ألقى نفسه بملابسه على السرير النظيف .. ثم نام..

لم يدري متى نام أو كيف.. لكنه قام فجأة بعد فترة من الوقت.. فتح عينيه ونظر حوله في الهلع.. جميع الأضواء مطفأة.. مد يده محاولًا التقاط هاتفه المحمول ليحصل على بعض الضوء.. أمسكه بعصبية وبسرعة أضاء الكشاف..

دار به في جنبات الغرفة.. كل شيء في مكانه.. لكن ظلال كل شيء راح تتمايل وتتمدد في أشكال مخيفة مع حركة الضوء..

فجأة سمع صوت نحيب كئيب في أحد زوايا الغرفة.. سرت قشعريرة خائفة في جسده بينما يتلفت تجاه الصوت بضوء هاتفه..

هاله ما رأى..

فتاة تفترش الأرض توليه ظهرها بينما شعرها ينسدل على كتفيها يعلوه غبار كثيف..

قام من سريره محاولًا ألا يصدر أي صوت.. لا يدري لماذا فعلها.. أخذ يتراجع نحو باب الغرفة .. صوت نحيب الفتاة يعلو أكثر ويكاد يكون صراخا.. تراجع أكثر.. فجأة التفت إليه صارخة..

بادلها صراخ بصراخ وهو يطالع وجها الغائرة ملامحه وركض خارجًا.. لكنه فجأة اصطدم بشخص ما في الظلام ليسقط على الأرض وترتطم رأسه بقوة ويسقط الهاتف من يده بعيدًا.. وبينما يتسلل وعيه بعيدًا عنه.. رأى الفتاة تقترب مترنحة في اتجاهه.. وشبح أحدهم ينحني نحوه.. ثم لم يعد هناك المزيد!

*****

عاد يوسف لمكتبه ولازالت عشرات الأسئلة تنعق داخل رأسه مثل غربان غاضبة حتى كان صوتها يصم آذانه عن تلك الطرقات على الباب..

فجأة فتحت فايزة الباب ودلفت للغرفة بقلق.. نظر لها وقد تفاجأ بها أمامه:

- في إيه يا فايزة.. مفيش حاجة اسمها تخبطي قبل ما تدخلي!
- ما خبطت يا دكتور الله بس حضرتك ماردتش..
- في حاجة مهمة؟

تلفتت فايزة حولها بقلق وكأنها تتأكد أنه لا يوجد سواهما في الغرفة..

- في إيه فايزة ما تخلصي؟

صاح بها يوسف بضيق

- معلش يا دكتور أصل الكلام اللي هقولهولك ده ممكن يوديني في داهية.. و زي ما تقول كده خايفة حد يسمعنا ..
- مين هيسمعك هنا يا ست فايزة.. اخلصي يلا قولي في إيه؟

صمتت مترددة ثم مدت يدها لتخرج هاتفها المحمول وفتحته لتبحث عن شيء ما بينما يوسف يراقبها في تساؤل.. لم تتركه ينتظر طويلًا .. مدت يدها المرتجفة بالهاتف ليوسف الذي تناوله هو الآخر ببطء لينظر في شاشته..

ما أن طالع الصورة على شاشة الهاتف حتى برقت عيناه في دهشة وهلع.. كانت الصورة لفريدة.. أو بمعنى أدق لجثة فريدة.. وقد ارزقت شفتاها على نحو عجيب وتجعدت بشرتها وكأنها قد تقدم بها العمر عشرات الأعوام دفعة واحدة..

- يخرب بيتك.. انتي اتجننتي.. انتي إزاي تصوري حاجة زي كده..

صاح بها في غضب مكتوم

- كمل حضرتك باقي الصور وشوف بس وانت تعرف

عقد حاجبيه في غضب:

- هو لسه في باقي!

سحب الصورة ليرى تلك التي تليها.. هنا برقت عيناه أكثر وهو ينظر لعيني فريدة اللتان تحولتا للون أبيض شاحب.. سحب الصور التالية كان لرقبة فريدة ويبدو عليها آثار غريبة وغائرة.. وكأن شخص ما أو شيء ما أطبق فكيه على مؤخرة رقبتها..

سحب الصورة التالية.. ذراع فريدة به خدوش عميقة .. ثم صورة لبطن فريدة.. وقد ظهر فوق منطقة السرة علامة غريبة.. وكأنها نقش لم يستطع أن يتبين ما هو..

وهذه كانت الصورة الأخيرة..

- شفت بقى حضرتك أنا صورت الصور دي ليه.. أنا قبل الغسل كنت بجهز جثة المرحومة زي ما الدكتور رشدي قالي.. شفت الحاجات دي.. اترعبت ومبقتش عارفة أعمل إيه.. لقيت نفسي بصورها بسرعة قبل أهلها ما ييجوا.. وخفت أقول لحد.. بس من ساعة ما المرحومة ما ماتت وأنا مش قادرة أتلايم على نفسي ولا حتى أقرب من أوضتها.. وخلاص معدتش قادرة أستحمل وهسيب المستشفى وأشوف لي شغلانة في حتة تانية..

هز يوسف رأسه في حيرة ثم قال:

- انتي مخبية عني حاجة تانية ولا إيه؟

رددت بتلعثم: لا تانية ولا تالتة بس كل اللي أنا عارفاه إن المرحومة دي زي ما يكون كانت ملبوسة .. وأنا مرعوبة من ساعتها.. أنا جيت أقولك وخلاص.. علشان أبقى ريحت ضميري

صمت يوسف قليلًا يفكر ثم قال:

- ابعتي لي الصور دي..

نظرت له فايزة وكأنها تسأله إن كان متأكد من طلبه..أومأ برأسه لها .. فعادت لهاتفها وبدأت ترسل الصور.. ومع صوت وصول كل صورة لهاتفه كان يشعر وكأنه ناقوس خطر يدق أعلى وأعلى..

*****

- لسه مش عايزة تتكلمي؟

بدت وكأن هند في عالم آخر، فلم تعر هاني أي اهتمام وبدت شاخصة ببصرها جامدة.. صمت قليلًا ثم عاد يستطرد:

- أنا مش حابب أضغط عليكي.. بس كمان يهمني جدًا أساعدك وعلشان أعمل كده لازم نتكلم..

صمت فخيم الصمت.. :

- طيب إيه رأيك تكتبي.. اكتبي أي حاجة تيجي على بالك .. مش لازم دلوقتي.. بس أي وقت تحبي تكتبي حاجة ممكن تضغطي على الجرس ده وأنا بنفسي هجيلك... اتفقنا؟!

كان لديه رغبة حقيقية في أن يتمكن من حل عقدة لسانها وإخراجها من تلك الحالة بأي طريقة.. لكن لم يكن دافعه لذلك رغبة في مساعدتها بصفتها مريضة تحتاجه بل من أجل أن يثبت أنه أفضل من يوسف..

هذه البنت أمامه.. في نفس عمر فريدة تقريبًا ويكاد هناك تشابه مبدئي في حالتهما.. طلب أن تكون في هذه الغرفة تحديدًا.. نفس غرفة فريدة.. إمعانًا منه في

التحدي وإثبات أنه يستحق مكانة أفضل.. وسيثبت ذلك للجميع حين ينجح فيما فشل فيه يوسف..

ارتسمت ابتسامة نصر على شفتيه...

لم ينتبه لعيني هند التي تحدجه في بغض مخيف وكأنها كانت تستمع لصوت أفكاره..

فجأة أخذت تزوم بهمهمات غريبة وبصوت أجش..

التفت لها في فزع ..

اصطدمت عيناه بعيناها فتجمدت الدماء في عروقه.. لم تكن تلك العينان اللتان رأهما من قبل وقد اتسعت حدقتهما بلون أسود مخيف..

نهض من مكانه فزعًا وتراجع للوراء..

كانت ترمقه في ثبات وشعر وكأنها تبتسم بسخرية..

ثم.. خرج منها ذلك الصوت الأجش المرعب.. هذه المرة كانت الكلمة مفهومة لا لبث فيها .. كانت إسم .. إسم يعرفه جيدًا .. إسم يكره صاحبه كما يكره ذلك الرعب الذي اجتاح كيانه:

- يووووسف!

*****

وصل يوسف متأخرًا فوجد البيت قد سكنت جوارحه وراح في سبات عميق، توجه نحو المطبخ وفتح الثلاجة .. أخرج لنفسه زجاجة عصير برتقال .. أغمض عينيه وهو يترك حواسه تتخلل ما بين دفقات العصير البارد .. تحرك بكسل نحو غرفته..

أضاء نور الغرفة.. توجه نحو سريره وجلس بإرهاق وقد وضع الزجاجة على الكومدينو بجواره .. كان يشعر بصداع ورغبة شديدة في نوم عميق يترك فيه المجال لخلايا مخه أن تعيد شحنة بطارياتها.. قام متجه نحو الخزانة ليبدل ثيابه..

حانت منه التفاتة ناحية المكتبة فإذا به يرى صورة صغيرة على الأرض عند الزواية..

قطب جبينه في ضيق ثم تحرك نحوها..

التقط الصورة ونظر فيها.. صورة رجل في العقد الخامس تقريبًا من العمر ينظر بثبات إليه.. شعر بنظراته تكاد تخترقه .. قلب الصورة ونظر على ماكتب خلفها.. ذات الحروف باللغة المجهولة..

وضع الصورة في جيبه ثم خرج من الغرفة متوجها لغرفة أمه .. قبل أن يفتح الباب تراجع.. أمه ما كانت لتقترب من المكتبة حتى ولو كان ذلك بغرض الترتيب أو التنظيف .. هي تعرف أنه يهتم بذلك ولا يحب أن يعبث أحدًا بمحتوياتها..

لابد إذن أنها سلمى أخته..

تراجع متوجهًا لغرفتها.. طرق الباب برفق.. لم ترد ولم تفتح..

هز رأسه في ضيق وزفر بقوة وعاد نحو غرفته.. ما أن دلف داخل الغرفة حتى تسمرت قدماه..

أمام المكتبة كان هناك أحدهم.. شخص ما يقف يوليه ظهره.. برقت عيناه وانطلقت دقات قلبه تعدو فرارًا من بين ضلوعه ..

لكن قدماه لم تفر به لأي مكان..

وقف مشدوهًا ينظر لذلك الشخص الذي بدا كمن يبحث ما بين الكتب عن شيءٍ ما..

فجأة توقف والتفت تجاه يوسف ببطئ

ما أن رأى يوسف وجهه حتى شهق بقوة..

لم يكن يعرفه أو حتى رآه من قبل..

كان ينظر نحو متألماً ..

قابضًا بيده اليمنى على عنقه وقد سالت الدماء غزيرة من رقبته المنحورة..

فتح فمه مصدرًا فحيحًا مرعبًا.. بدا وكأنه يريد أن يقول شيئًا ما .. رفع يده الأخرى ليوسف كأنه يستنجد به لكنه سقط..

- أنت جيت يا يوسف ..

انتشله صوت أخته من وراءه فالتفت صوبها في رعب هائل .. كانت الصدمة من نصيبها وهي تطالع ملامح وجهه الممتقع فزعًا ..

- مالك يا يوسف..

عاد ببصره بسرعة ناحية ذلك الشخص..

تفاجأ أنه لم يعد هناك..

كانت المكتبة تقف وحدها .. ولم يعد هناك أثر له ولا للدماء على الأرض..

اختفى ذلك الشخص فجأة كما ظهر فجأة..

اختفى هذا الذي لم يكن سوى.. أسامة!

****

# الفصل الخامس

على عكس عادته، وصل هاني ذلك الصباح مبكرًا ما دعى كل من التقى به من طاقم المستشفى أن ينظر له باستغراب اكتفى أن يطل من العيون دون أن يجرأ أن يصل للألسنة..

طلب قهوة قبل أن يدلف مكتبه ويصفق الباب وراءه في ضيق ..

لازال ما حدث بالأمس مع هند يصيبه بالتوتر الشديد.. لم يشأ أن يسميه خوفًا حتى وإن كان يشعر به يقرض أعماق فواءده..

طرق متوجس على بابه جاوبه بحدة:

- ادخل يا شوقي ..

دخل شوقي.. رجل في العقد السادس من العمر ..قصير القامة نحيف البدن محني الظهر قليلًا بعد أنهكه غسيل الكلى الذي أصابه منذ عام .. نظر له بعيون غائرة متعبة:

- صباح الخير يا دكتور ..

- لازم يعني الخبطتين دول على الباب.. منا لسه داخل قدامك هكون يعني بعمل إيه..

اكتفي شوقي بصب القهوة في صمت ..

- خدمة تاني يا دكتور؟!

أخرج سيجارة بتوتر ثم أشعلها ليأخذ نفس عميق مغمضًا عينيه:

- ابعتي لي البت فايزة!

أومأ شوقي برأسه ثم استدار ليهم بالخروج:

- سي يوسف جه ولا لسه..؟

عاد ليلتفت:

- قبل سعادتك بنص ساعة..

- غريبة.. معندوش محاضرات النهارده يعني وجاي من صباحية ربنا.. إيه خايف حد يسرق سراير المستشفى ولا المخابيل اللي فيها.. روح .. روح يلا ابعتلي فايزة..

كان يحاول أن ينفث ما به من سحائب خوف وتوتر بأي طريقة لكن كل ذلك لم يفلح، كان قلبه يرتجف رغمًا عنه كلما تذكر تلك النظرة التي رآها في عيني هند.. لقد التقى من قبل بالكثير من حالات الفصام والجنون والهوس.. تعامل معها جميعًا بحرفية ومهارة يشهد له بها الجميع..

لكن هذه المرة..

هذه المرة ..

ثم كيف لها أن تعرف يوسف؟ ولماذا ذكرت أسمه؟ هل يُعقل أن يكون التقى بها دون أن يعلم.. لابد أن هذا ما حدث!

طرق متعجل على الباب..

- ادخلي يا فايزة!

- صباح الخير يا دكتور

لم تقلها كما اعتادها منها.. نظر لها بتعجب

- مالك انتي كمان عالصبح؟!

تلعثمت وجاهدت لتبدو طبيعية:

- مالي يا دكتور.. عم شوقي قالي إن حضرتك عايزني؟
- مالي يا دكتور.. طيب.. المهم.. إنتي كنت وردية ليل إمبارح .. صح؟
- أيوه.. منا كنت مروحة بس عم شوقي جه قالي إن ..
- خلاص انتي هتحكي لي قصة حياتك.. إيه أخبار الحالة الجديدة؟

قاطعها بضيق

بلعت ريقها بصعوبة:

- مالها يا دكتور؟!
- مالها!!! هو إيه اللي مالها؟! ما تتكلمي عدل يا هبابة انتي.. مريتي عليها امبارح بالليل ولا لا..

صمتت وراحت عيناها تبحث عن جواب ما..

- مهو أصل أنا خلاص هسيب المستشفى
- نعم يا اختي.. تسيبي المستشفى .. وده من إيه إن شاء الله .. وبعدين فرضًا يعني سموك هتسيبي المستشفى.. إيه علاقة ده بسؤالي.. ولا انتي خلاص شايفانا مش من مقامك .. مريتي على الحالة ولا؟!
- لا يا دكتور

أجابت بعصبية..

- يعني إيه لا يا دكتور .. إمال مين اللي مر عليها امبارح؟

صاح بها بغضب

- يا دكتور طول الليل عمالة تطلع أصوات غريبة.. وتتكلم بصوت يخوف كلام مش مفهوم .. وزي ما يكون بتكلم حد.. صوتها كل شوية يتغير.. وشوية تضحك

بهستيريا.. وشوية تصرخ .. وشوية تخبط على الباب لغاية ما خفنا تكسره .. خفت أدخلها.. خفت .. حرام والله كده .. ده كتير والله .. كتير!

كانت تتحدث بكلمات متلاحقة مختنقة بدموع انهمرت أخيرًا بعد أن خارت قواها في حبسها..

ولم تقل المزيد.. استدارت وهرولت نحو الباب لتخرج قبل أن يفيق من وقع كلامها..

خرجت وتركته أسوأ مما كان عليه!

****

كانت أم أيمن معها نسختها من مفتاح شقة أسامة.. وضعت ما تحمل من أكياس على الأرض وأخرجت المفتاح من جيب جلابيتها السوداء وفتحت الباب ..

دخلت وأغلقت الباب وتوجهت حاملة الأكياس نحو المطبخ..

وضعت الأكياس هناك ثم خلعت طرحتها ثم الجلابية السوداء التي كان من تحتها جلابية بيتي زرقاء اللون .. ثم ارتدت إيشارب أخضر اللون ربطت به رأسها..

أفرغت بعض ما حوته الأكياس في الثلاجة وأخرجت بعض ما بداخل الأخيرة من بقايا طعام ..

التقطت مقشة وفوطة تنظيف ثم خرجت من المطبخ في طريقها لغرفتها.. دائمًا ما تبدأ بها..

في طريقها للغرفة.. فجأة كادت تنزلق وتزل قدمها لكنها تمالكت نفسها وتمسكت بأحد كراسي طاولة السفرة عن يسارها..

نظرت نحو قدميها .. إذا بدماء قانية قد تجلطت تجمعات منها مكون هلامًا غليظًا ..

سالت نظراتها مع الدم المسفوح حتى وصل بها حيث كانت هناك .. جثة أسامة.. بلا رأس.. وانطلقت صرختها تهتك ستر ذلك الصباح!

****

عقد يوسف حاجبيه في ضيق محاولًا التركيز فيما انتهت فايزة من سرده، كان لديه ما يكفيه من التشوش والحيرة منذ ليلة أمس حتى أنه لم ينم سوى ساعتين تخللتها فواصل من الكوابيس المتداخلة أكثر من فواصل إعلانات المسلسلات الرمضانية..

استغرقه تفكير عميق متخبط يجاهد لربط أجزاء أحجية متناثرة ضاعت أغلب مكوناتها.. كان قد صادف فايزة في الممر بعد أن خرجت من غرفة هاني ورأى الحالة التي كانت عليه.. طلب منها أن تأتي معه لمكتبه وتحكي له كل ما حدث بالتفصيل..

قصت عليه الأعراض التي رأتها على هند، وكيف أن الدماء تجمدت في عروقها وهي تسمعها طوال الليل تزوم وتصرخ ثم تخور في أنين مفجع.. تلك الأعراض تجعلها تشعر أنها تشبه بعض الأعراض التي كانت لدى فريدة.. حدثته عن الأصوات .. الصراخ .. تغير صوتها.. نظراتها الشاخصة الحائرة التي لا تتوقف عن ملاحقة شيئًا ما هنا وهناك ثم هدوءها المفاجئ.. أدرك يوسف يقينًا أنه يحتاج أن يجلس معها ربما ينجح في أن يجعلها تتحدث بأي شيء .. أي كلمة قد تكون طرف خيط يمتد

لثوب الحقيقة.. لكن تبقى مشكلة أساسية.. كيف سيتجاوز هاني، لن يسمح له أبدًا ويكشر عن أنيابه

عاد ببصره نحو فايزة..

- الدكتور هاني فين دلوقتي؟
- كان في مكتبه
- طيب معلش عاوزك تتأكدي لى لو لسه مخرجش من مكتبه..

عادت بعد دقائق.. هاني لم يخرج من مكتبه.. لابد أن يتحرك وبسرعة..

خرج متوجها لذات لغرفة التي سكنتها فريدة من قبل .. عند الباب وقف مترددًا لثوان.. تعاقبت أمام عينيه لقطات متلاحقة لكل ما مر به خلال الأيام الماضية.. حسم تردده بسرعة وطرق الباب بهدوء.. لم ينتظر رد.. فتح الباب ودخل

*****

صداع..

صداع..

صداع..

يكاد يقتله.. أيقظه من نومه مع خبطات تهز جدران جمجمته الآيلة للانشقاق

لايدري متى نام ولا كم من الوقت غاب عن دنياه..

احتاج عماد بعض الوقت حتى أدرك أنه لازال ممدا على سريره في غرفته في الفندق.. استجمع بعض من قوة واهنة ليعتدل.. لكنها خانته فعاد يتهاوى بظهره على السرير...

لا يتذكر أي شيء عن ليلة البارحة..

مرة ثانية يحاول النهوض..

وقعت عيناه على زجاجة نبيذ ممدة على السرير بجواره يقبع في قاعها القليل.. لا يتذكر متى جاء بها ولا كيف شربها.. لقد فعل فيما مضى كل شيء تقريبًا إلا أنه لم يشرب كأسًا واحدًا في حياته، وليس ذلك لحرام يخشاه أو عيب يراه.. فقط هو يحب أن يبقى واع بما حوله طوال الوقت.. فكيف الآن يشرب زجاجة كاملة من الخمر!

ترنح متجها نحو الحمام.. تبول واقفًا متثائبا.. أفرغ ما به مستمتعًا بشعور التخلص من حمله الثقيل..

انتهى..

عاد بوجهه بطالعه في المرآة.. هاله الحالة التي عليها.. وكأنه خرج من قبر.. يحتاج أن يغرق في ماء النيل فربما يفيق..

تساقطت خلاياه المستهلكة مع الماء المنهمر تحت الدش البارد..

رويدا رويدا بدأت ينقشع الضباب من عقله.. لكن الصداع بقى جاثما على عقله..

جلس يشرب قهوة طلبها بعد أن فرغ من الحمام

لم يطلب أي طعام .. فقط طلب قهوة..

نظر في جواله.. ليس بأفضل حال منه.. انطفأت منه الطاقة ويحتاج إعادة الشحن..

قام يبحث عنه دون جدوى..

فجأة برقت عيناه بجزع..

عقد حاحبيه في خوف وهو ينظر ناحية الثلاجة الأنيقة الصغيرة في زاوية الغرفة..

أسفل عتبتها هناك عن بابها..

رأى دماء سالت من داخلها.. وامتدت لتصنع بقعة مشوهة على السجادة..

توجه نحوها في رعب..

بيد مرتجفة أمسك مقبض الباب وسحبه في بطئ..

انفتح الباب قليلًا.. ثم توقف في نصف الطريق كأنه هو الآخر تجمدت مفاصله..

لكن كان ذلك المقدار كافيا ليرى ما بداخل الثلاجة..

هناك على الرف.. شخصت زوجين من العيون تحدق متسعة فيه..

عيون لم يصعب عليه معرفة صاحبها..

فقد كانت العينان لازالتا تسكنان ذات المقلتين في ذات الرأس..

رأس أسامة..

لكنها هنا في ثلاجته دون جسده.. وقد نُحرت رقبته بوحشية لتتدلى بعض أطراف الجلد الممزق.. ولم يعد هناك المزيد من الدماء ليسيل.. فقط أطراف متجلطة..

انخلع من مكانه وانتفض بهلع للوارء..

انشق صدره عن صرخة قوية..

اصطدم بالحائط خلفه..

فانهار ساقطا على الأرض..

كلتا يديه فوق رأسه..

عيناه اتسعتا أكثر من تلك الشاخصة فيه هناك..

طرقات سريعة على باب غرفته..

لم يسمعها..

الطرقات تتابع بإلحاح متوترة.. لم يعد هو هنا.. غابت عنه كل حواسه ولم يبقى سوى عيني أسامة الشاخصة في بعتاب وألم

فُتح الباب..

واندفعت عاملة الغرف ومن وراءها أحدهم هرول نحوه في جزع

العاملة هي من رأت الدماء.. ثم باب الثلاجة العاجز عن الحركة.. وأخيرًا فجعتها العينين والرأس المنحور..

صرخت بهستيريا.. صرختها التي انخلع لها قلب عماد أخيرًا ليفيق.. أو ربما تبتلعه دوامته..

*****

وقف يوسف متسمرًا.

مرت دقيقة تقريبًا بعد أن دخل إلى غرفة هند، حاول أن يقاوم قشعريرة سرت في أوصاله رغمًا عنه في النهاية..

هند.. نائمة في نفس السرير الذي كانت فيه فريدة من قبل..

هل يوقظها؟

يحتاج أن يتحدث معها قبل أن يدخل هاني في أي لحظة..

اقترب من السرير في هدوء..

تمالك أعصابه .. ونطق اسمها ..

صوته مبحبوح غير مسموع.. تنحنح ثم حاول من جديد

لم يبدو عليها أنها تسمعه.. ربت على كفتها برفق..

فتحت عينيها غير مستوعبة ما يجري..

ابتسم لها مطمئنًا:

- أنا الدكتور يوسف.. أسف لو أزعجتك بس محتاج نتكلم شوية..

الآن بدأت تعي بعض مما يحدث..

اعتدلت جالسة.. تحدق في وجهه بصدمة.. ما لبثت أن تحولت لهلع.. وهي تتراجع وتنكمش على نفسها في السرير ودموعها تتساقط في صمت دون مقدمات ..

اقترب منها محاولًا أن يهدئ روعها..

لكنها ارتدت عنه في رعب هائل ثم .. صرخت

صرخت .. صراخا هستيريًا محمومًا وكأن رعب حياتها تجسد أمام عينيها

وانفتح الباب من وراء بقوة..

- انت بتعمل إيه هنا؟!

صاح هاني فيه بغضب هادر ..

*****

انتهى هاني من حديث الغاضب في مكتب الدكتور رشدي.. بينما يوسف ينظر له في هدوء زاد من حدة ثورته..

- خلاص خلصت الحبتين بتوعك.. ولا كأني سمعت كلمة من التخاريف اللي قلتها..

ثم توجه يوسف بكلامه للدكتور رشدي:

- يا دكتور أنا حسيت من الكلام اللي فايزة حكيتهولي إن ممكن يكون في تشابه بين حالة فريدة الله يرحمها وحالة هند.. علشان كده كنت محتاج أشوفها وأتكلم معها..

- أديك قلتها أهو يا دكتور.. حالة فريدة الله يرحمها.. يعني خلاص .. راحت.. جيم أوفر بالنسبة لها وليك أنت كمان.. كنت ورينا شطارتك معها.. لكن إزاي البيه الدكتور الفلتة يفشل.. فدلوقتي عاوز تعوض فشلك وتتدخل في حالة هند وده اللي لا يمكن أسمح بيه أبدًا.. وأنا بقول هي عرفت أسمك منين .. أتاري حضرتك بتدخلها!

كانت كلمات هاني تتلاحق وتتداخل في بعضها من شدة الغضب..

نظر يوسف لهاني باندهاش .. ما الذي يعنيه أن هند تعرف أسمه .. ما الذي دعاه لادعاء ذلك؟

قبل أن يسأل هاني صاح الدكتور رشدي في حدة

- اهدى يا دكتور هاني.. وخليك فاكر إنك في مكتبي.

ثم استطرد وهو ينظر ليوسف:

- بس للأسف يا دكتور يوسف.. الدكتور هاني عنده حق في كتير من اللي قاله.. حالة فريدة خلاص انتهت بموتها.. يعني معدش فيه فرصة قدامك تساعدها

غير إنك تقرالها الفاتحة.. أنت متعرفش أنا خسرت قد إيه بخسارتي لعلاقتي بحسين الغانم.. حالة هند ما تخصكش.. والدكتور هاني بس هو اللي من حقه يتابعها ويشوف الأصلح إيه ويعمله.. ولو احتاج مساعدتك أو مشورتك أكيد هيقولك..

ده أخر كلامي عندي ومش عاوز كلمة زيادة من أي واحد فيكم..

اتفضلوا من فضلكم دلوقتي..

ولأول مرة منذ سنوات يشعر هاني بنشوة الانتصار .. لم يهتم أن يخفي تلك الشماتة التي تتراقص في نظراته ليوسف بينما يخرج من الغرفة غاضبًا..

ثم استدار هو كذلك لينصرف لكن استوقفه صوت الدكتور رشدي:

- اسمع.. دي آخر فرصة ليك عندي.. والكلام اللي قلته ليوسف مش معناه إني موافق على طريقتك وأسلوبك.. فوق لنفسك وركز في شغلك وبطل الغل اللي جواك ده وإلا هتضيع نفسك..

وتبدد كل شعور داخله بالانتصار والنشوة.. رمق الدكتور رشدي بحنق وهم بقول شيء ما.. لكنه لم يفعل..

*****

- هات يا بني كوباية شاي.. ومتنساش النعناع.. مش كل مرة تتنيل تقولي نسيت..

ثم دلف مكتبه بعصبية..

لم يكن هناك في المكتب ما يميزه .. مكتب غارق في اللون البني.. بعض الأوراق.. تقويم مكتبي مطبوع على ظهره إسم أحد الشركات.. تتوسط المكتب لوحة نحاسية متواضعة كتب عليها .. أشرف عفيف .. ضابط شرطة..

ملامح وجهه تنضح بالضيق والملل.. بدأ الصلع يغزو جانبي مقدمة رأسه.. للوهلة الأولى قد لا تعتقد أنه ضابط مباحث..

وضع جهاز اللاسلكي على المكتب ثم الموبايل.. فتح أحد الأدراج وأخرج شاحن كهربائي أوصلها لمقبس كهربائي أخطبوطي تمتد أذرعه بوصلات متنوعة واحد منهم لجهاز الكمبيوتر عن يساره.. انشغل بتحريك الشاحن يمين ويسار ثم فوق وتحت برفق في محاولة لإقناعه بالسماح للكهرباء بالمرور لموبايله..

طرقتين على الباب ثم فتحه أحدهم مباشرة.. ضخم الجثة على عكس رئيسه..

- صباح الخير سعادتك.. الواد اللي جبناه من الفندق موجود بره..

أشار له أشرف ليدخله..

دخل ضخم الجثة مرة ثانية وقد قبض على ذراع عماد المكبلة..

- سيبه واطلع انت

أخيرًا نجحت محاولاته وأصدر الموبايل ذلك الصوت الذي أراح أعصابه نسبيًا "تننن .."

أبعد يديه عن الشاحن بحذر خوفًا أن يغير أقواله وينكر علاقته بالكهرباء مرة ثانية..

- هه .. هتتكلم ولا ناوي تتعبني..

لم يكن عماد واعيًا بما يحدث.. كانت نظراته شاردة تائهة.. لم يرد..

- آه.. قولت لي.. أنت شكلك ناوي تقرفني وتعمل فيها عبيط وأهبل..

لم تفلح كلماته في تغيير أي شيء..

- بص يا بي انت.. اتكلم علشان أقدر أساعدك.. إيه اللي حصل بالظبط.. وإيه اللي جاب رأس القتيل عندك.. أنت تعرفه إزاي

لا جديد..

صمت ينتظر رد.. لم يحصل عليه..

فجأة بدأ شفتا عماد تتمتم بهمهمات غير مفهومة..

- بتقول إيه يا بني انت..

استمرت الهمهمات بوتيرة أسرع.. ليست همهمات بكل كلمة واحدة يكررها بلا وعي..

نهض أشرف من مكانه

- الصبر يا رب.. ما تبطل ياااد أنت الهبل ده وانطق بتقول ايه..

وقف مقابلًا له..

همهمات..

- انت بتتهبب قاعد تقول ايه...؟

صمت محاولًا تبين ما يقول..

مرت ثوان وهو ينصت.. أخيرًا فهم ما يقول .. لم يكل سوى كلمة واحدة.. إسم واحد .. إسم يكرره بلا توقف ..

يوسف .. يوسف.. يوسف

*****

صفع يوسف الباب من وراء على غير عادته..

خلف مكتبه جلس مستندًا بذقنه فوق قبضتيه المضمومة في توتر.. لقد وضعه هاني هذه المرة في ركن ضيق ليس له من فرار.. لكنه لن يرتضي أبدًا بهذا الحال كثيرًا.. الجميع يعلم أنه تقريبًا نائب مدير المستشفى.. لم يصدر قرار رسمي بهذا لكن هكذا يتعامل وعلى هذا تسير الأمور.. حتى أنه يتخذ العديد من القرارات الهامة دون الرجوع للدكتور رشدي فكيف يمنعه الآن من رؤية أحد الحالات أو حتى الوقوف على تطوراتها..

لابد من صدور قرار رسمي يضعه في مكانته اللائقة ينتصر به لذاته ويوطد به مكانته في المستشفى..

هز رأسه ومط شفتيه في حسم..

هذا هو القرار السليم..

بعدها سيتفرغ لمضايقات هاني وأفعاله الصبيانية..

ارتفع جرس هاتفه بالرنة المميزة لسارة...

لقد انشغل عنها الفترة الماضية بصورة فاقت أي وقت مضى..

التقط الهاتف وهو يتهيأ لموجة تسونامي عاصفة من العتاب واللوم..

- عارف والله هتقولي إيه.. أنا مش فايق لأي كلام وعندي اللي مكفيني..

أجابه صمتها..

شعر أنه كان وقح..

- معلش والله.. غصب عني .. حقك عليه..

- شفت.. أنا اللي كنت عارفة إنك هتقول كده.. خلاص بقيت حافظاك.. عارف يا يوسف.. أقولك حاجة.. أنت أناني.. مش بتفكر غير في نفسك ورسالة

الماجستير والحالة اللي بقت هوس عندك.. وعندك استعداد تبيع الدنيا علشان تلاقيها .. وباقي الناس كلها لازم تقدر وتتفهم ظروفك وتساعدك كمان.. أنت فاكر إني مش عارفة أنت ليه بتدور على الحالة دي.. أنا عارفة وفاهمة أنت ليه بتعمل كده.. بس لازم تفهم إنك مش هتقدر تغير حاجة من اللي حصل!

توقفت بعد أن أطلقت هذه الدفعة من الكلمات .. شعرت أنها قالت أكثر مما ينبغي..

- قصدك إيه عارفة؟! ايه التخريف اللي بتقوليه ده؟!

كلماته جاءت مرتبكة متفاجئة..

- تخريف.. ماشي يا يوسف.. هو تخريف.. وانت صح.. سلام

وأنهت المكالمة..

*****

# الفصل السادس

نظر الصحفي عاصم فتحي في ساعته للمرة الثالثة خلال خمس دقائق .. مرت قرابة الساعتين الآن وهو ينتظر أمام غرفة ضابط المباحث ..

كان أحد مصادره أبلغه بالواقعة التي حدثت منذ قليل..

العثور على رأس شخص مذبوح في ثلاجة أحد النزلاء...

خبر من نوع جديد.. هو على يقين أنه أول من وصل.. سبق صحفي ولا شك.. جرائم القتل تحدث كل يوم وبشكل شبه روتيني.. فقرات ثابتة ومملة.. لكن هذه المرة مختلفة..

رأس مذبوحة لشخص مجهول .. وأين في ثلاجة.. والثلاجة في غرفة فندق شهير.. أخيرًا نجح حادث في تحريك قرينات الاستشعار الصحفية لديه..

مصدره أخبره أن المشتبه به الأول جاري التحقيق معه الآن.. ولم ينتهى منه ضابط المباحث..

ترى من هذا المشتبه وكيف يبدو؟!

قبل أن يسترسل في المزيد من التساؤلات.. سمع صوت أزيز مزعج انتفض له المخبر أمام الباب.. عدل هندامه بسرعة ثم طرق الباب ودخل..

لم يتمكن عاصم من اللحاق بأي لقطة مما يحدث بالداخل.. المخبر الضخم حجب كل شيء تقريبا بجسده وهو يفتح الباب ويدخل ثم يغلقه سريعا..

لم تمر ثوان وخرج المخبر مرة ثانية..

هذه المرة كان يمسك بذلك الشاب.. لم يبدو عليه أنه من أرباب السوابق.. مجرد شاب عادي.. لكن نظراته شاردة ويحدق فيما حوله بذهول..

التقت أعينهما لثوان..

نظر له عماد نفس النظرات الخاوية.. بينما يردد في خفوت..

خفوت لم يمنع عاصم من تبين الإسم.. يوسف..!

*****

كانت هند تراقب الممرضة التي دخلت غرفتها ..

لم تكن مدركة إن كان ما تراه حقيقي أم الخيال.. لقد اختلط كل شيء في عقلها.. هي تعلم أنها في مصحة نفسية لكنها لا تدري لماذا هي هنا ولا منذ متى..

منذ فترة تشعر أنها هناك شيء غير مريح يحدث من حولها..

ترى خيالات تظهر وتختفي فجأة..

أصبحت تنام أكثر من المعتاد.. ودائمًا تشعر وكأن هناك من يراقبها.. لم تخبر أحدًا.. قالت لنفسها لعل كذا أو كذا..

لكن الأعراض ازدادت سوءًا.. والخيالات تعددت زياراتها.. لكنها أيضًا لم تكترث.. ثم بدأت الخيالات كلها تتوحد في كيان ما.. أو شخص ما.. لا يمكن الجزم بأنه شخص ولا يمكن وصفه بأنه غير ذلك .. كانت تنتهي به كل الكوابيس حتى أتي يوم خطبتها من وائل.. ورأته في هذه الهيئة المرعبة.... هيئة ذلك الكيان الشخص!

في داخلها كانت تشعر أن كل هذا يرجع لذلك اليوم المشئوم.. اليوم الذي غلبها فيه فضولها.. ويا ليتها ما فعلت.. ومن يومها بدأت كل هذه المعاناة... لقد رأت يومها ما تظن أنه خيال ذلك الكيان..

شعرت برجفة تسري في أوصالها بمجرد أن تذكرت.. لقد حكت كل ذلك لأمها هذا الصباح.. أمها استمعت بانزعاج وخوف.. ثم قامت برقيته والمعوذتين وآية الكرسي ثم قالت لها أنها ستذهب ثم تعود بعد الظهر..

ابتسمت لها الممرضة:

- عاملة إيه دلوقتي؟

حاولت أن تبتسم فلم تفلح.. فاكتفت بإيماءة من رأسها..

انتهت الممرضة مما تفعل..

لم تدري أصلًا ماذا كانت تفعل..

ثم توجهت الممرضة للحمام .. انتبهت أنها لم تشغل الأنوار.. فقط دخلت.. كانت تستطيع أن تسمع صوت ماء الصنبور .. لكن الغريب

أن الممرضة كانت تدندن..

تندندن بلا اكتراث.. أي نوع من الممرضات هذه.. كادت أن تصيح بها.. تعنفها.. لتنصرف لكن..

فجأة.. بدأ صوت الممرضة.. يتغير ..

لم تعد تدندن..صارت تزوم..

صوتها أيضًا تبدل.. صار وكأنه مواء قط..

مواء قط غاضب.. يزوم ويموء ويتردد صوت مواءه المرعب في الحمام المظلم..

ثم فجأة انطفأت أنوار الغرفة كلها..

تجمدت صرختها فلم تستطع أن تفلت..

مواء القط يقترب.. لا تراه .. تشعر به .. وكأنه يتلذذ برعبها.. يمشي نحوها في خيلاء مخيف.. لكنها لا تراه..

صمت فجأة..

انكمشت..

ضمت ركبتها إلى صدرها..

كتمت أنفاسها وكأنها تختبئ منه..

ثم.. هناك في طرف السرير.. قفز.. ورأته.. هناك جالسا..

رغم الظلام رأته.. أسود سواد ليل القبور ..

يحدجها بعينين لم ترى مثلها

ثم اعتدل على قوائمه..

وتحرك نحوها في هدوء .. واقترب.. واقترب .. واقترب..

ثم ساد ظلام آخر.. وفقدت وعيها..!

*****

- دكتور هاني.. المدام والدة هند بره..

نظر هاني للممرضة أمامه باستغراب:

- أعمل إيه يعني.. أقوم أكون في شرف استقبالهم..

- لا أصل حضرتك عاوزين يشوفوا هند .. أصل هي مش والدتها لوحدها.. معاها واحدة تانية وراجل شكله كده شيخ..

- شيخ!!

ثم قام من مكانه في عصبية وهو يقول:

- همه فين..

- في الاستقبال حضرتك..

خرج من غرفته مندفعًا

- حلو أوي.. ده اللي كان ناقصني .. عم الشيخ .. ما نقلها زاوية أحسن بقى..

كانوا في انتظاره.. والدة هند وامرأة يبدو من ملامحها أنها خالة هند.. ورجل أربعيني ذو لحية خفيفة هادئ الملامح.. لم يكن يرتدي جلباب أو أي شيء يوحي بأنه شيخ.. لكنه لا يبدو إلا كشيخ..

رأوه فنهضوا ظنًا منهم أنه آت لاصطحابهم لغرفة هند

- أفندم

رمقته أم هند بدهشة وتعجب من أسلوبه..

- في إيه يا بني.. أنا والدة هند.. أنت نستني ولا إيه..

- لا مش ناسي حضرتك طبعًا.. بس ممكن أتشرف وأعرف مين حضراتهم..

ازداد ضيق والدة هند وقالت:

- رغم أنه مش من حقك .. بس دي أختي .. وحضرته جاي يطمن على هند..

بعناد سأل هاني:

- أيوه اللي هو إزاي يعني.. يعني المدام خالتها.. حضرته هيطمن بصفته إيه

ابتسم الرجل بهدوء

- السلام عليكم.. حضرتك أنا مجرد صديق للأسرة.. عرفت إن هند تعبانة شوية فجاي أقوم بالواجب.. هل في مشكلة

رمقه هاني بضيق

- يعني حضرتك مش شيخ؟

- وافرض.. ودي فيها إيه؟

- فيها كتير يا مولانا.. فيها إني الدكتور المتابع لحالة هند.. ويهمني أعرف مين هيشوفها وليه علشان ميحصلهاش انتكاسة.. وحضرتك أكيد مش جاي تشوفها وبس.. أكيد هتقعد تشعوذ وتعمل حبتين تحلل بيهم الفلوس اللي هتاخدها بصفتك صديق الأسرة..

تدخلت والدة هند صائحة:

- إيه يا بني .. أنت داخل علينا بزعابيبك ليه.. بنتي هشوفها زي ما أنا عاوزة .. ومش من حق أي حد يعترض مين جاي معايا..

- أسف..

بحسم قالها هاني

- يعني إيه أسف.. هتمنعني أشوف بنتي؟

هم هاني باستكمال هجومه لكن جاء صوت هادر من وراءه أخرسه:

- دكتور هاني..

التفتوا ..

- إحنا أسفين يا أمي.. دكتور هاني ميقصدش!

رمقه هاني بغضب:

- دكتور يوسف.. لو سمحت متدخلش.. الحالة دي بتاعتي.. ومحدش له كلمة هنا غيري..

- بتاعتي إيه وهباب إيه.. أنت هتشتري بنتي علشان بتعالجها.. فين مدير المستشفي يشوف التهريج ده؟!

مرة ثانية تخرس كلمات يوسف هاني.. وهذه المرة ألجمته:

- أنا الدكتور يوسف نائب مدير المستشفى.. وبكرر اعتذاري.. اتفضلي معايا أنا هوصلك بنفسي لأوضة هند..

تابع هاني انصرافهم من حوله وهو يغلي من الغضب.. لقد فهم أن يوسف يحاوله أن يدفعه لأن يرتكب حماقة أكبر..

جز على أسنانه حتى كاد يهشمها ثم لحق بهم مسرعًا..

*****

كانت سلمى منشغلة بالحديث مع صديقة لها في الكلية عندما سمعت صوت سارة خلفها:

- مساء الخير..

التفتت بدهشة ثم ابتسمت بحب:

- إيه ده أنا مش مصدقة.. انتي بجد عندنا هنا في الكلية..

ثم التفتت سلمى لصديقتها:

- دي سارة خطيبة يوسف..

تبادلا التحية باقتضاب..

- معلش يا سارة ممكن نتكلم شوية

جلستا في مقهى بجوار الكلية.. نظرت سلمى لسارة بقلق

- في إيه يا سارة.. شكلك ما يطمنش خالص.. هو حصل حاجة؟

مطت سارة شفتيها في ضيق

- أيوه.. كنت بكلم يوسف ومقدرتش أمسك أعصابي.. اتعصبت عليه وقلت له كلام..

ولم تكمل ..

- كلام إيه..أوعي تكوني..

لم تجبها ولم تحتاج هي إجابتها.. كان صمتها كاف لتدرك أن هناك عاصفة في الطريق..

*****

طرقت الممرضة باب غرفة هند بلطف..

ثم فتحت الباب ونظرت .. كانت هند تبدو نائمة.. أفسحت الطريق للجميع.. دلفوا للغرفة ومن وراءهم هاني..

نظرت والدة هند لها بحزن.. كانت شاحبة ويتصبب العرق من جبينها.. سالت دموعها بأسى وهي تقترب منها وتجلس بجوارها ثم تطبع قبلة على جبينها.. ثم أخرجت من حقيبتها منديلًا وأخذت تجفف جبين هند .. ساد الوجوم و الصمت بينما يراقبون ذلك المشهد..

فتحت هند عينيها فرأت أمها..

- ماما..

بصوت واهن غير مصدق

- أيوه يا حبيبتي.. أنا هنا يا عمري

شهقت هند بقوة وانفجرت في موجة بكاء وهي تلقي بنفسها بين ذراعي أمها التي ضمتها بقوة وقد امتزجت دموعهما..

ومن خلف دموعها.. نظرت هند لمن في الغرفة..

خالتها..

هاني..

ثم يوسف والممرضة..

فجأة انتفضت.. وهي تحدق في وجه الممرضة.. إنها هي تلك التي كانت هنا تموء منذ قليل.. هي بذاتها..

- مالك يا بنتي في إيه..

وضمتها بقوة كأنها تحميها من خطر ما..

- اطمني يا هند.. إحنا كلنا هنا معاكي..

التفتت ليوسف الذي يبتسم إليها.. اتسعت عيناها رعبًا وهي تنظر إليه.. انهمرت دموعها .. راحت ترتجف

- لا .. لا .. أنت مش حقيقي.. أنت مش هنا ..

نظر الجميع لها باستغراب وهي توجه كلماتها ليوسف.. وهي تنظر لأمها..

- انتو مش هنا صح.. أنا في كابوس.. لا.. حد يمشيه.. لا يا ماما.. لا.. لا..لا..

رمق هاني يوسف بغضب..

- انت عملت إيه..

بادله يوسف النظرة الغاضبة وصاح:

- عملت إيه أنت مجنون.. واضح إنها في حالة هلاوس.. ثم التفت للممرضة.. هاتي حقنة مهدئة بسرعة..

هرولت الممرضة لتأتي بالحقنة..

التفت يوسف فإذا الجميع ينظرون له.. نظرة ريبة.. وخوف!

*****

- مساء الفل يا باشتنا

نظر ضابط المباحث أشرف عفيفي لعاصم فتحي وابتسامته اللزجة

- انت لحقت تعرف وتيجي كمان؟

- انت عارفني يا باشا.. بشم ريحة المصايب وبالذات اللي من النوع ده..

- ماشي يا عم الوولف

ابتسم عاصم بتصنع:

- مقبولة منك يا باشتنا.. بس قولي بقى إيه الموضوع علشان نلحق ننشر واسمك ينور في التحقيق..

- ماشي يا سيدي.. كل اللي نعرفه دلوقتي إن الواد ده إسمه عماد عبد الخالق فرج.. طالب.. نزل في الفندق ده من حوالي ٤ أيام.. مكنش بينزل من أوضته خالص.. نزل مرة واحدة بس متأخر ورجع بعد ٣ ساعات وشايل شنطة.. طبعًا احنا راجعنا الكاميرات وشفناه .. تاني يوم الهاوس كيبنج سمعوه بيصرخ ولما دخلوا لقوا راس شخص لسه مش عارفين هو مين في التلاجة.. عممنا أوصافه وبنشوف لو في بلاغات حد مختفي بنفس الأوصاف.. ارتحت يا سي عاصم..

- يا ساتر.. راس بني آدم في تلاجة.. معدتش عليه دي.. تفتكر يا باشا الواد ممكن يكون من آكلي لحوم البشر..

رفع أشرف حاجبيه بسخرية

- عرفت اللي جاي علشانه.. سبني بقى مش فاضي لك..

- طيب سؤال واحد بس.. معرفتوش الواد ده.. عماد يعني.. أهله فين.. منين.. جه الفندق ليه..

زفر أشرف في ضيق

- عاصم اخفى من وشي بقى مش فاضي لك
- طيب مين يوسف اللي عمال يقول أسمه ده؟!

سأل بإلحاح قابله أشرف بانزعاج..

- ده مش للنشر يا عاصم.. احنا لسه بنحقق.. وأوعى تنشر حاجة عن الاسم ده.. مفهوم
- مفهوم يا باشا.. مفهوم.. متشكر جدًا على كرمك معايا..

ثم انصرف حاملًا معه جعبة من المعلومات والأسئلة .. لن يهدأ حتى يعثر على إجابات لها..

*****

كان يوسف في طريقه لغرفته عندما سمعه فالتفت نحوه.. كان والد هند يسأل أحد الممرضات:

- دكتور هاني من فضلك ألاقيه فين.. أصله مش في مكتبه..

جاوبه يوسف:

- أهلًا بحضرتك.. أنا الدكتور يوسف نائب مدير المستشفى.. الدكتور هاني مشغول شوية.. اتفضل معايا حضرتك في مكتبي .. مش هاخد من وقتك كتير..

قاده يوسف لمكتبه ثم دخلا سويًا ..

- حضرتك عندك فكرة عن حالة هند؟

كان القلق باديًا بوضوح على ملامحه

قال يوسف:

- الدكتور هاني هو اللي متابع الحالة.. بس أنا طبعا متابع معاه..

- طيب يعني حضرتك تعرف عندها إيه بالظبط؟

- لسه بدري أوي نستقر على تشخيص.. علشان كده يمكن هنحتاج نخليها معانا فترة أطول..

صمت برهة ..

- تشرب إيه الأول..

- ولا حاجة.. شكرًا

طلب له يوسف قهوة ..

- ممكن حضرتك تكلمني عن هند شوية؟

تنهد الأب بقوة وبدا وكأنه يفكر من أين يبدأ..

- عادي.. بنت زي أي بنت.. يمكن دلعناها شوية لأنها الوحيدة.. بتدرس في كلية آداب.. معندهاش أي مشاكل .. بتحب تسافر وتروح وتيجي وتقابل ناس جديدة.. تقريبًا كل اللي نفسها فيه بتلاقيه.. حتى يوم ما تعبت كان يوم قراءة فاتحتها.. لكن فجأة قعدت تصرخ بدون سبب ..

بدا على يوسف الاهتمام

- معلش لو تحكي لي أكتر إيه اللي حصل بالظبط؟

- أبدًا.. الناس جم في الميعاد وقابلناهم أنا ووالدتها وقعدنا منتظرينها.. بمجرد ما دخلت الأوضة وشافتهم صرخت ووقعت مغمى عليها!

فرك يوسف ذقنه مفكرًا.. الأمر فيه غموض

- حاجة غريبة فعلًا.. طيب هل خطيبها ده.. أو اللي كان جاي يخطبها .. كنتوا ضاغطين عليها علشان توافق عليها مثلًا؟

- بالعكس.. هي أصلًا اللي أقنعتنا نوافق عليه.. لأننا كنا رافضينه في البداية.. لكن أنا سألت عنه ولقتيه كويس وابن ناس

أطرق يوسف مفكرًا والرجل ينظر له في قلق

- هو حضرتك شاكك في حاجة؟

هز يوسف رأسه بالنفي

- لا بس بحاول أستبعد أي احتمالات مش أكتر .. طيب معلش سؤال تاني وأتمنى ما يضايقش حضرتك..

- اتفضل

- هل هند ممكن تكون بتاخد أي نوع من الحبوب .. يعني الحاجات اللي منتشرة الفترة دي بين الشباب وبيحبوها يجربوها من باب الفضول يعني؟

أجاب الرجل في حسم

- لا لا.. مش هند.. هند عاقلة جدًا.. هي أيوه بتحب تجرب أي حاجة جديدة وعندها فضول دايمًا بس مستحيل تاخد حاجة زي كده..

بدا أن الحديث وصل لنهايته.. ثم هم الرجل بالانصراف لكنه تدارك وقد تذكر شيئًا ما:

- في حاجة معرفش ممكن تكون مفيدة ولا لا.. هند لما كانت صغيرة كان بتعمل شوية حاجات ملهاش تفسير وخلتنا كلنا مش قادرين نفهمها

عقد يوسف حاجبيه

- إزاي يعني

- يعني مثلًا كانت أوقات نلاقيها فرحانة بدون سبب ولما نسألها تقولي تيتة جاية النهارده.. رغم إنه ميكونش في أي كلام عن حاجة زي كده... أو تلاقيها في وقت

تاني بتعيط أو متضايقة برضو من غير سبب وتطلب بإلحاح إنها تكلم حد معين في التليفون.. يعني جدتها أو حد من قرايبنا اللي بتحبهم ولما نتصل على الحد ده نلاقيه فعلًا عنده مشكلة أو تعبان.. ده غير بقى كذا مرة تحلم حلم ويحصل زي ما شافته..

- طيب والحاجات دي لسه بتحصلها؟

سأل يوسف

- لا.. تقريبًا بقت نادرًا لما بيحصل حاجة زي كده.. مش عارف إيه السبب بس محدش فينا طبعًا اهتم.. وهي طبعًا كمان يمكن مش فاكرة أوي الحاجات دي

ابتسم يوسف للرجل وقال:

- أسف لو طولت على حضرتك .. وبإذن الله هند هتكن أحسن..

نهض الرجل شاكرًا

- بالعكس أنا اللي شاكر ليك وقتك واهتمامك..

ثم وضع يده في جيب سترته وأخرج بطاقة صغيرة ناولها ليوسف ..

نظر يوسف في البطاقة :

- الأستاذ سعيد الغانم .. محامي

فجأة انتبه يوسف للإسم ونظر له بدهشة

- حضرتك تعرف الأستاذ حسين الغانم..

مط الرجل شفتيه وقال:

- أيوه.. احنا قرايب من بعيد.. وأنا شغال معاه في المكتب.. ده حتى بنته فريدة توفت فجأة من كام يوم .. ربنا يصبره..

كان يوسف يستمع غير مصدق

- طيب هي هند تعرف فريدة؟

- لا همه اتقابلوا كم مرة كده في مناسبات.. بس مكنوش أصحاب يعني.. لكن أنا برضو محبتش أعرف هند بوفاة فريدة علطول علشان كانت بتستعد لقراءة فاتحتها ولو كانت عرفت حاجة زي كده كان ممكن تتأثر جدًا .. فشفت إنه الأفضل تعرف بعدين..

صمت يوسف محدقًا فيه وقد أخذته المفاجأة.. نظر له الرجل بارتباك ثم قال :

- هستأذن أنا بقى أروح أطمن على هند
- اتفضل.. متشكر جدًا على وقتك

قام لينصرف غير مدركًا أنه ألقى بيوسف في متاهة لا يعرف أين تنتهي به!

- خليني أوصل حضرتك لأوضة فريدة!
- فريدة!

طالعه سعيد الغانم بدهشة فاستدرك يوسف سريعًا

- أسف.. قصدي هند.. اتفضل معايا

ثم فتح الباب وأشار إليه.. فخرج والد هند وتبعه يوسف ثم قال محاولًا تغيير دفة الحوار..

- هبقى أحتاج حضرتك في استشارة قانونية كده لو وقت يسمح بعدين إن شاء الله

ابتسم الرجل ابتسامة باهتة مجاملًا

- أكيد طبعًا.. تحت أمرك في أي وقت.

فجأة ظهر أمامهما هاني.. ما أن رآهما معًا حتى تغير وجهه وجاء نحوهما .. أرغم شفتاه على رسم ابتسامة هادئة.. حياهُ الرجل ولم يسأله عن حالة هند.. واستأذن أن يذهب للاطمئنان عليها..

رمقه هاني بغضب بعد أن انصرف ثم التفت ليوسف:

- إيه الحكاية بالظبط.. مش هتبطل حركاتك دي.. من شوية تحرجني قدام أهل هند.. ودلوقتي ألاقيك ماشي مع أبوها.. وقبل ده كل دخلت لهند .. ممكن تفهمني قصدك ايه من ده كله..

- هيكون قصدي إيه يعني.. الراجل قابلني وكان بيسأل عليك.. رحبت بيه وكنت جايبه لسعادتك..

رفع هاني حاجبيه بسخرية:

- رحبت بيه .. ماشي يا عم الزوق.. عاوز أقولك حاجة يا يوسف.. من فضلك ملكش دعوة بحالة هند.. أنا مش هسمح لك تتدخل مرة تانية.. وبطل بقى الغرور اللي أنت فيه والطريقة اللي بتتعامل بيها..

- اسمع انت.. أنت عارف إني في منصب نائب المدير و..

قاطعه هاني صائحًا:

- من أمتى إن شاء الله.. اللي أعرفه إنك عايش الدور وبس لكن مفيش قرار رسمي.. وبعدين كون اللي تكونه لكن ملكش دعوة بحالة هند.. قال وإيه.. أكلم البت ألاقيها تقولي سي يوسف... طبعًا أكيد سمعت بالترقية الوهمية بتاعتك

- يعني إيه قالت يوسف؟

- إيه هو اللي يعني إيه.. يعني سعادتك معرفتهاش بنفسك لما شفتها

- أنا دخلت لها مرة واحدة بس اللي شفتني فيها.. وكانت في الحالة اللي أنت شفتها.. يبقى إزاي عرفت إسمي..

أطرق هاني مفكرًا ثم قال:

- يعني أنت مدخلتلهاش قبل المرة دي؟

- محصلش..

- إمال جابت إسمك منين .. ؟!

صمت الاثنان .. ولوهلة بدا وكأنهما نسيا كل خلافاتهما.. ثم تنهد يوسف قائلًا

- الموضوع ده في حاجة مش واضحة.. ياريت بقى أنت تبقى تعرف وتقولي ..

هنا استفاق هاني من شروده وعاد ليرد بتحد

- طبعا هعرف.. بس أقولك بمناسبة إيه.. سلام يا.. سي يوسف

لم يكترث يوسف بجملته الأخيرة.. كان كل تفكيره في سؤال واحد.. كيف عرفت هند أسمه؟ هند عرفت إسمه.. وفريدة قالت أنها رأته قبل أن يراها.. هل فريدة وهند كانتا لديهما قدرات فوق حسية خاصة.. هل؟!

ليس من سبيل للإجابة إلا بزيارة واحدة وحاسمة.. زيارة لا يتوقع أن يجد فيها أي ترحاب .. لكن لابد منها!

******

# الفصل السابع

في المساء عاد يوسف إلى المنزل.. لم يتأخر مثلما يفعل كل ليلة.. كان عقله يموج بالكثير من الأفكار وعلامات الاستفهام تتطاير حوله هنا وهناك مثل ذباب مزعج.. أيضًا كان يريد أن يتحدث مع أخته سلمى بخصوص ما قالته سارة.. قالت أنها تعرف سر إصراره أن يعثر على حالة من نوع معين لرسالة الماجستير..

كانت أمه وأخته تجلسان تتابعان باهتمام أحد البرامج.. قدومه مبكرًا أثار دهشتهما .. قامت أمه لتسخين الطعام من أجله.. انتظر حتى غابت في المطبخ..

قام وأشار لأخته أن تتبعه إلى غرفته..

- انتي اتكلمتي مع سارة في حاجة؟

سألها هامسًا

- حاجة إيه؟

رأى ارتباكها فعلم أنها تخفي أمرًا ما..

- سارة كلمتني وبتقولي إنها عارفة أنا ليه بدور على الحالة لرسالتي.. جابت الكلام ده منين؟

- وأنا هعرف منين؟

لم يعد هناك مجالًا للشك أنها تكذب.

- تمام أوي.. يعني حضرتك انسحبتي برضو من لسانك زي عادتك وحكيتي..

نظرت له بضيق ثم قالت بتحد بعد أن أدركت أنه ليس هناك مجالًا للإنكار.

- سارة كانت متضايقة جدًا.. وكلمتني تفضفض معايا وتشتكي إنك مش فاضي لها خالص وإنها حاسة إنك مبقتش تحبها.

- قومتي أنتي علشان تتدافعي عني وتريحها اتبرعتي وحكيتي

ارتفع صوته

- وفيها إيه يعني.. هي مش هتبقى مراتك.. يعني واحدة من العيلة..

صاح بها غاضبًا:

- فيها إن مش من حقك تحكي أو تتكلمي من نفسك وتتصرفي بدون أي إحساس بالمسؤلية

- يوسف من فضلك متزعقليش.. أنا مبقتش صغيرة

لم تعد أصواتهما غير مسموعة لوالدتهما التي جاءت مسرعة

- في إيه يا ولاد.. انتو بتتخانقوا ولا إيه؟

- الهانم بنتك حكيت لسارة.. وكمان شايفة نفسها مش غلطانة ومش عاجبها إني بزعق..

نظرت الأم لسلمي بانزعاج:

- ليه كده يا بنتي بتقلبي علينا المواجع؟

- أنا برضو اللي بقلب المواجع ولا حضرته اللي عايش نايم قايم بيقلب في المواجع وحابس نفسه وحابسنا معاه فيها وشايف أنه صح ومش ممكن يكون بيغلط..

لم يشعر يوسف بنفسه.. دون تفكير رفع يده وصفع أخته بقوة..

هو نفسه هاله ما فعل.. صرخت أمه

- يوسف..

أخته لم تصدق أنه صفعها..

لم يجد ما يقول .. فاندفع فارًا من غرفته.. صوت باب الشقة ينصك بعنف نبأهما أنه لم يعد بالبيت..

*****

ما أن أدخلوه غرفة الحجز في القسم حتى عاد إليه صفاء عقله.. تمنى لو لم يحدث ذلك.. صحيح أنه كان يشعر بإجهاد وتعب كبير إلا أن كل ذلك قد تلاشى بمجرد أن دفعه العسكري داخل هذه الغرفة..

تلقفته عشرات العيون بينما الأخري لم تشعر بوجوده كون أصحابها يغطون في النوم.. الغرفة شبه منعدمة التهوية وتختلط فيها روائح مختلفة.. العامل المشترك بينها جميعًا أنها مخلفات طبيعية لوجود هذا العدد في هذه الغرفة الضيقة..

عطن بقايا طعام متعفن هو أفضلها.. عرق .. غازات بيولوجية.. مرحاض بلدي تغشاه قطعة قماش تتصنع دور باب ساتر..

أصحاب العيون ما بين ممدد على الأرض على جانبه.. أو منكمش على مقعدته ضامًا ركبتيه والقليل يحظى بمساحة أكبر..

ملابس معلقة على مسامير بالحائط.

مصباح نيون وحيد تراكمت على حوافه وصندوقه المعدني أوساخ وصبغات لزجة مجهولة المصدر..

وقف عماد مكانه لا يدري أين يذهب

لا يوجد محل لخطوة يخطوها .. وربما إن حاول يطأ أحد الراقدين كالجثث في كل شبر..

فجأة قام شخص ما ضخم الجثة كان يفترش بقعة مميزة بجوار الجدار.. توجه نحوه وتخطى الأجساد والأعناق وطئًا ودعسًا دون اكتراث..

وقف أمامه فحجب ما وراءه وزيادة.. لم يكن فيما حجب ما يستحق الرؤية على أي حال

حدج عماد بشراسة غيرة مبررة.. ثم ببرود وتحدٍ مهين ودون أن ينطق بكلمة دس يده في جيب عماد .. أخرج ما في هذا الجيب وتبعه ما في باقي الجيوب.. لم يكن هناك الكثير .. فقط علبة سجائر وبعض ما تبقى مع مال .. اكتفى عماد بالاستسلام.. أدرك خطورة مجرد محاولة الاعتراض

- شكلك واد بكايته خالص.. أنت جاي في إيه؟

لم يفهم عماد ما قال.. فنظر له مستغربًا

تبرع أحدهم ليترجم:

- المعلم بيقولك شكلك ابن ناس.. ايه اللي جابك هنا.. جاي في إيه؟

صمت عماد ثوان.. ثم قال:

- أقعد فين..

نظر له المعلم بسخرية ثم انفجر ضاحكًا:

- تقعد فين؟ قلب أمك.. هقعدك على حجري طبعًا.. ودي عايزة كلام..

وتعالت ضحكات بقية المساجين ما بين مجامل للمعلم وآخر أعجبته فكرة مشاهدة عماد على حجر المعلم..

فجأة توقف ضخم الجثة عن الضحك.. فتوقفت من وراءه باقي الضحكات .. ثم قال في صرامة:

- اتلقح ياد هناك جنب دورة المايه..

ثم استدار عائدًا لمكانه

نظر عماد حيث أشار إليه.. ثم توجه لهناك متلمسًا خطواته..

جلس القرفصاء.. انصرفت عنه العيون.. مؤقتًا

كان لايزال غير مصدق ما حدث

ما الذي حدث لأسامة.. من قتله بهذه الطريقة البشعة .. ثم أتى برأسه ليضعها في ثلاجة غرفته.. من؟

وكيف أتي إلى غرفته دون أن يشعر هو به؟

هل يعقل أنه هو من قتل أسامة؟ أسند رأسه إلى الحائط ثم أغلق عينيه.. فنام..

مر بعض الوقت قبل أن يفيق.. نظر حوله.. لدهشته لم يكن هناك غيره في غرفة الحجز.. أين ذهب الجميع.. هل تم الإفراج عنهم جميعًا دفعة واحدة...

نهض ينظر حوله في استغراب..

اتجه نحو الباب.. نظر عبر الفتحة الصغيرة.. الممر الضيقة خاو تمام الأبواب على الجانبين مفتوحة.. كل الأبواب عدا بابه..

حاول أن يصرخ لينادي على أي شخص.. تفاجأ أن صوته لا يخرج.. شعر بصدمة.. حاول ثانية وثالثة ورابعة.. صوته حبيس..

فجأة بدأ الضوء في الممر يرتعش..

حتى أصبح الممر الكئيب شبه معتم تمامًا.

ثم سمع صوت من وراءه

التفت مسرعًا

الغرفة خاوية.. لكن .. هناك في الحائط المقابل له.. بدأ شئ ما يحدث.. وكأن سحابة سوداء قاتمة تبرز من الحائط.. وكأن الحائط يتقيأها.. أو تولد منه بدفعات مخاض عسير..

نظر مشدوهًا وقد تملكه الرعب..

السحابة السوداء تتشكل .. أمام عينيه.. تتجسد.. في كيان أسود يرتفع حتى يكاد أن يصل لسقف الغرفة..

ثم بدأ ذلك الكيان يتجه نحوه.. يقترب بينما هو مكانه لا يبتعد.. تسمرت قدماه.. اقترب السواد منه.. ثم بدأ يلفه.. يدور من حوله ويلفه .. ببطء .. لف جميع جسده .. شعر أن حركته قد شلت تمامًا..

ثم بدأ جزء يبرز من ذلك السواد ويتشكل قبالة وجه تمامًا.. بدأت تظهر له ملامح.. ملامح آدمية.. نعم.. هذا وجه فتاة تحدق فيه برعب أكثر من ذلك الذي يجتاحه.. ثم عاد يتبدل وجهها ببطء.. هذه المرة كان وجه أسامة.. وكأنه يتألم باكيًآ.. حاول عماد أن يصرخ.. فتح فمه ليصرخ.. لم تخرج صرخته.. لكن ذلك الكيان الأسود .. وكأنه كان ينتظر أن يفتح فمه.. انسل بسرعة في فم عماد.. كان يشعر به ثقيلًا يزحف داخل أعماقه.. ضاق صدره... يكاد يختنق.. الكيان يكاد يختفي بأكمله في أحشائه.. كثعبان ضخم راح يغيب داخله.. حتى انتهى.. فتحرر عماد.. وسقط أرضًا..

*****

عبر هاني الطريق مسرعًا إلى حيث ينتظره الصحفي عاصم فتحي على قهوة البورصة بميدان طلعت حرب.. كالعادة المكان المزدحم وتنبعث روائح الشيشة التي تتراقص أدخنتها مع نغمات أغنية لأم كلثوم وصخب الشارع..

"تفيد بإيه إيه يا ندم يا ندم وتعمل إيه إيه يا عتاب.. "

عاصم لا يغير طاولته وكأنه مستأجر نظام قديم لا يفلح معه أي محاولات لزحزحته من بقعته..

- نفسي أفهم حكايتك مع قهوة البورصة.. خلاص يعني مفيش غيرها...

وسحب كرسي وجلس بجوار عاصم الذي كان يدخن الشيشة ويسحب منها نفس بقوة وكأنه ينتزع أحشائها.. نظر لهاني بنصف عين وقال بثقة:

- هتفهم إيه أنت .. يا بني هنا مقصد أهل الثقافة والأدب والإبداع..

- وانت بقى واحد من دول؟!

- حتى لو مكنتش منهم.. المهم أكون قريب منهم.. وبعدين هنا بقى تقدر تلاقي كل حواديت وحكاوي مصر بين إيديك.. يعني أنت مثلًا جاي ليه.. أكيد مش علشان تتطلع في محاسن جمالي.. لكن الصنارة غمزت.. مجرد ما قلت لك على حكاية الواد اللي أسمه عماد.. جيت جري.. طبعا لو كنت قلت لك عاوزك في موضوع تاني مكنتش عبرت اللي جابوني..

نظر له هاني بنفاذ صبر:

- لخص يا عاصم أنا تعبان ومش فايق..

- حاضر يا دكترة.. اسمع ..

قص عليه حكاية عماد وكيف وجدوا رأس شخص ما في ثلاجته حتى قبضوا عليه .. لم يكن في كل هذا ما يهم هاني..

- وأنا مالي أنا في حدوتة الحيوان ده.. حد قالك اني وكيل نيابة ولا محامي..

- اصبر على رزقك يا نجم.. لما تعرف الواد الحيوان ده كان عمال بهذي يقول إيه.. هتفهم..

تمكنت كلماته من اشعال فتيل الفضول لدى هاني:

- الواد مكنش عمال يقول غير كلمة واحدة.. أو يعني علشان نتحرى الدقة.. إسم واحد .. إسم مين بقى يا دكترة؟

- مين؟

- يوسف.. يوسف.. يوسف ..

- يوسف!

قطب جبينه مستغربًا ثم استطرد:

- ودي فيها إيه.. هو مفيش غير يوسف بتاعنا..

نظر له هاني بخبث

- لا طبعا.. بس مفيش غير واحد بس إسمه يوسف بيدرس في نفس الكلية اللي فيها الواد الحيوان اللي إسمه عماد..

- إيه؟!!

برقت عيني هاني من المفاجأة.. ثم ازدرد ريقه وهو يقول:

- وانت عرفت الحكاية دي إزاي؟

- لا ده شغلي أنا بقى.. بس أنا من الصبح وأنا ما ورايش غير حكاية الواد ده.. أنا كنت بدور وراه علشان لقيتها حدوتة حلوة وقلت تنفع لحلقة البرنامج اللي ماسك التحرير بتاعه.. المهم.. لما فتشوا الواد لقيو معاه كارنيه الكلية.. آداب علم نفس..

بس ضربت في دماغي في ساعتها وافتكرت إنك قلت لي مرة إن صاحبك اللي إسمه يوسف بيدي سكاشن هناك..

شرد هاني لحظة مفكرًا.. ثم قال:

- وده معناه إيه؟

- معرفش.. يمكن يكون له معنى وممكن لا.. لسه التحقيقات شغالة.. بس أنا أول ما عرفت قولت لازم أبلغك.. أستاهلش أنا عشوة حلوة بقى ولا إيه؟

لم يرد هاني.. لم يرد.. كانت الخيوط تشابكت على نحو معقد تمامًا في عقله ولا يدري كيف يمكن حلها.. كيف؟!

*****

كانت الساعة قد اقتربت الساعة من الرابعة فجرًا حين كانت أحد المرضات في المستشفى تسير في الطرقة الذي تقع فيه غرفة هند..

كانت تمشي تطالع هاتفها المحمول وتكتب رسالة مبتسمة..

عند باب هند توقفت فجأة والتفتت نحو باب الغرفة ..

اقتربت .. وضعت إنها بالقرب من الباب ..استرقت السمع..

بالفعل هناك صوت..

صوت حشرجة .. وكأن أحدهم يحشرج مختنقًا..

دون تردد أخرجت مفتاح وفتحت الباب بسرعة.. ما أن دخلت حتى أطلقت صرخة مدوية..

كانت هند ممدة تتشنج على الأرض وقد ابيضت عيناها شاخطة للسقف..

ولم يكن هذا فقط ما أطلق صرختها.. بل ما كان يحشو فهم هند.. كان فهما مفتوح وقد امتلأ عن أخره بكتل قطن اختلط بدماء تسيل من أسنانها بينما قد تمزق جانب من مرتبة السرير ..

لقد لحقت هند بمن سكنت الغرفة قبلها.. أدركت هذا جيدًاحين رأتها.. فلم يعد هنا سوى الصراخ

*****

# الفصل الثامن

تململت فايزة في فراشها وقد جافاها النوم بعد أن استيقظت من نومها منزعجة على صوت شجار في الشارع.. لكم تكره هذه المنطقة التي تعيش فيها وتحلم لو تمكنت ذات يوم من الانتقال لمنطقة أفضل من تلك التي وكأنها سقطت من حسابات الجميع..

كانت تسكن مع والدها المسن.. كان لها أخ وحيد مات غرقًا في البحر بينما كان يحاول السفر تهريب إلى إيطاليا.. كان يحلم بواقع أفضل من ذلك المطبق بلا رحمة على أيامه ومستقبله.. فلتقمه البحر ليطوي صفحته مع آخرين .. من يومها تعيش هي مع والدها الذي أصابته الفاجعة بالشلل .. ورغم أن ترك عملها في المصحة سيكون سببًا في العديد من المشاكل وربما الأزمات لأنها ليس لديها البديل.. لكنها لم تكن لتستطع أن تكمل يومًا واحد في هذا المكان .. ما لم تخبره ليوسف يفوق ما قالته.. لقد أخفت عنه الجزء الأخطر من روايتها والذي كان هو السبب الرئيس لاتخاذ قرارها بالرحيل بلا رجعة ..

يوسف لم يعلم لأنها لم تحكي ولن تحكي.. وحتي إن حكت من سيصدقها؟ بل ربما اتهمت بالجنون وحجزت لنفسها مكان في مستشفى الأمراض العقلية ولن تكون كتلك التي تعملها بها أبدًا..

ما الذي ستقوله؟

هل ستقول أنها رأت فريدة تتدخل غرفة هند؟

هل ستحكي لهم كيف التفتت نحوها ورمقتها بعيون باردة كالثلج جمدت أوصالها..

هل ستقول الأسم الذي رأته قبل ذلك في مرآة غرفة فريدة يوم انتحارها.. إسمه هو.. يوسف!

لن تقحم نفسها في كل هذه المخاطر التي لن تجني من وراءها إلا المتاعب لا تعلم أين ستذهب بها..

اعتدلت وجلست في سريرها.. ثم فكرت أن تذهب للاطمئنان على أبيها..

كان نائمًا.. قبلت يده بحنان ثم أغلقت الباب برفق حتى لا توقظه..

فجأة استرعى انتباهها ضوء دورة المياه .. كانت أطفأته بنفسها قبل أن تنام.. هل نسيت؟ ربما..

تثاءبت وهي تتوجه نحو دورة المياه بكسل.. ما أن اقتربت حتى سمعت صوت بالداخل..

تجمدت في مكانها .. هناك أصوات بالفعل بالداخل.. صوت تخبيط في المياه.. أحدهم بالداخل يضرب الماء بعنف..

اقتربت من الباب .. خبطات قلبها المضطرب بين ضلوعها يهز جميعا أوصالها..

استجمعت شجاعتها.. فتحت الباب ..

المشهد أمامها يتخطى حدود المنطق والخيال

في حوض الاستحمام الممتلىء عن آخره بالماء يرقد أخاها الراحل .. تغمره المياه ويحاول باستماتة أن ينجو.. لكنه لا يستطيع..

فهناك كانت تجلس بجانب حوض الاستحمام.. فريدة.. تمامًا كما رأتها بعد موتها.. كانت قابضة على رأس أخيها بقوة وتغرقه ..

شهقت فايزة بفزع..

بدا أن من ظنتها فريدة سمعتها.. فالتتفت لها ببطء..

وما أن رأت وجهها حتى انطلقت صرختها الملتاعة

*****

كان حسين الغانم منشغل بمكالمة هاتفية عندما دلف أيمن سكرتيره الخاص مكتبه .. أشار له بيده حسين أنه مشغول.. إلا أنه وقف متردد ولم يخرج ..

- في حاجة يا رامي؟
- في واحد موجود عندي بره من بدري ومُصر يقابلك سعادتك ..
- واحد مين ده..؟
- بيقول اسمه.. دكتور يوسف ياسين..
- يوسف ياسين.. يوسف مين؟ اه افتكرت .. وده إيه اللي جايبه.. دخله علطول .. اسمع في حد قابله غيرك..

قالها بقلق تعجب منه رامي

- لا سعادتك.. هو ما قابلش حد خالص..
- طيب خليه يدخل..

ثم عاد للهاتف

- معلش يا باشا.. غصب عني والله.. مضطر أقفل دلوقتي.. لا ما تقلقش دول شوية عيال عرر آخرهم بوئين .. اطمن أنا هكلم الناس بتوعنا يظبطوهم.. ماشي يا باشا.. سلام .. اتفضل سعادتك.. في حفظ الله.. في رعاية الله

أنهى مكالمته والتقط سيجارا ضخمًا أشعله في ضيق.. لم يكن لديه فكرة ما السبب وراء هذه الزيارة الغير مرغوب فيها.. لقد بذل مجهودًا في التأقلم مع حقيقة أن ابنته قد انتحرت.. أقنع كل من حوله بوفاتها بشكل طبيعي.. تقبل العزاء فيها.. وعاد لحياته من جديد

لكن ها هو ذلك الوقح الذي كاد يتسبب له في فضيحة ذات يوم يعود للظهور.. لاشك أنه سيحاول ابتزازه هذه المرة .. لكن دعه يفعل وسيكون بذلك قد كتب نهايته بيده..

عاد رامي يتقدم يوسف بابتسامة لزجة.

أشار له حسين فانصرف..

جلس يوسف على كرسي مقابل حسين الغانم..

- بعتذر لو جيت لحضرتك بدون موعد سابق..

- خير يا دكتور يوسف.. ياريت تعرفني سبب الزيارة اللي من غير سبب دي بسرعة علشان معنديش وقت

لم يكن يتوقع يوسف ترحيبًا أفضل لذا لم يكترث بأسلوبه وقال مباشرة:

- كنت عاوز أسأل حضرتك بخصوص المرحومة فريدة..

تأهب حسين الغانم للانقضاض..

- مالها؟

- يعني هل حضرتك كنت لاحظت عليها أي حاجة غريبة قبل كده؟

نظر له بارتياب

- غريبة إزاي يعني؟

قال يوسف متحاشيًا استخدام كلمات تستفزه..

- يعني تكون مثلًا مش بتنام كويس.. بتشوف أحلام بتتحقق.. مزاجها كان متقلب أو ..

قاطعه حسين الغانم بغضب:

- أنت إيه حكايتك يا جدع أنت.. الأول كنت عاوز تفضحني وتفضح بنتي في الجرايد ودلوقتي جاي تتكلم بكل برود وتسأل أسئلة مستفزة مش فاهم ليه.. أنت مين اللي مسلطك عليه..

نظر له يوسف بضيق وقال:

- أنا لا حد مسلطني ولا كنت عاوز أفضحك.. ومش عارف إيه أصلًا حكاية الصحفي اللي تقصده.. أنا معرفش حد ولا كلمت حد.. وممكن جدًا اللي عمل كده كان يقصدنا احنا الاتنين.. أنا جاي النهارده علشان حالة هند بنت الأستاذ سعيد الغانم قريبك اللي شغال معاك هنا في المكتب..

رمقه حسين الغانم بانزعاج:

- أنت تعرف سعيد منين؟ ومالها بنته؟

- هند بنت الأستاذ سعيد دخلت عندنا المصحة من كام يوم.. وحالتها تشبه كتير حالة فريدة الله يرحمها.. علشان كده جيت أسألك عن فريدة..

لم يكن أيًا مما قال يعنيه فقط كل ما خطر بباله أن يكون يوسف تحدث مع سعيد بخصوص فريدة

- أنت قلت لسعيد حاجة بخصوص فريدة؟

- لا.. اطمن.. أنا فهمت إن حضرتك مش عاوز حد يعرف .. ومحدش هيعرف.. بس أنا يهمني اللي حصل مع فريدة اللي يرحمها ما يتكررش مع هند..

تنهد حسين الغانم بآسى..

- فريدة خلاص راحت مني.. أنت عاوز مني إيه دلوقتي؟
- عاوزك تساعدني ..
- عاوزني أعمل إيه..؟

صمت يوسف لثوان ثم قال:

- يعني لو في موقف معين حصل بينك وبين فريدة.. أو حاجة حكيتهالك..
- فريدة مكنتش بتحكي حاجة لحد.. أصلًا أنا وأمها منفصلين من سنين وفريدة كانت ... الله يرحمك يا بنتي.. كانت عنيدة ودماغها ناشفة وبتعمل أي حاجة ممكن تتضايقني بيها.. كأنها بتعاقبنا أنا وأمها..

شعر يوسف لأول مرة بالتعاطف معه.. فقال مواسيًا:

- فريدة دلوقتي أكيد في مكان أحسن.. عمومًا أنا مش هطول عليك أكتر من كده.. بس لو في حاجة افتكرتها أو تقدر تساعد هند بيها هيكون كأن ساعدت فريدة بالظبط..

مست كلمات يوسف قلب الرجل.. فأطرق مفكرًا ثم أردف:

- أكيد هعمل كده .

ثم تبدلت ملامحه بسرعة وقال في بحنق:

- لكن لازم أعرف مين اللي كلم الواد الصحفي الحيوان ده ..

هز يوسف رأسه موافقا..

- ياريت لو حضرتك عرفت حاجة تعرفني ..

*****

انخرطت والدة هند في البكاء وهي تطالع ابنتها التي ترقد في غرفة بالمستشفى التي نُقلت إليها بعد محاولة انتحارها..

- اطمني حضرتك.. هي كويسة.. بس إحنا اديناها حقنة مهدئة.. الحمد لله أنهم جابوها في الوقت المناسب..

تنهد سعيد الغانم وهو يجاهد لحبس دموعه

- متشكر يا دكتور شوقي .. أنا مش قادر أصدق اللي بيحصل.. ولا عارف بيحصل ليه ..

ربت الدكتور شوقي صديق عمره على كتفه ثم أومأ إليه ليخرج معاه خارج الغرفة:

أغلق الباب ونظر بقلق:

- خير يا شوقي .. أنت مخبي عني حاجة ولا إيه؟

مط الدكتور شوقي شفتيه وقال بصوت خافت:

- اطمن هي كويسة.. بس في حاجة غريبة ممرضة عني شافتها وقالت لي.. وأنا قولت أعرفك

بلغ القلق من سعيد مبلغه وهو يسأل:

- تعرفني إيه؟

- الممرضة وهي بتغير لهند.. شافت علامات غريبة على جسمها..

- علامات زي إيه؟

- يعني.. تقدر تقول كدمات .. عض .. حاجات زي كده

برقت عيني سعيد في هلع:

- إيه ودي هتيجي منين؟

- مش عارف .. بس العلامات دي لو ملهاش سبب واضح .. يبقى..

وسكت متردداً أن يكمل..

- إيه؟

نظر شوقي لصديقه بشفقة وقال:

- إيه رأيك تجيب شيخ .. يعني يقرالها قرآن ويرقيها كام يوم كده

دارت عيني شوقي وكأنه حائر لا يدري ماذا يقول:

- أمها فعلًا عملت كده .. بس أنت شاكك في إيه؟

- معش هات واحد غيره

- برضو مفهمتنيش أنت شاكك في إيه؟

- مش شاكك في حاجة.. بس آخر مرة شفت علامات زي كده كانت في حالة شفتها زمان.. مكنش قادرين نعرف في إيه.. بس في النهاية اتضح إن البنت كان عندها مس!

صاح سعيد في خوف:

- مس! .. قصدك جن؟!

- وطي صوتك يا سعيد.. أنا بتكلم عن الحالة اللي مرت عليه زمان.. أنت جرب.. كده كده مش هنخسر حاجة.. بالعكس القرآن بركة في كل وقت .. معلش مضطر أسيبك علشان عندي مرور

ودارت الدنيا من حول سعيد الغانم

*****

تراجع الدكتور رشدي في كرسيه وهو يستمع لهاني في تركيز.. ما يقوله لهاني أثاره في نفسه تساؤلات بالفعل.. ما علاقة يوسف بذلك الشاب الذي وجدوا عنده ذلك الرأس.. ما علاقته بحالة هند..

- يا دكتور هند حاولت تنتحر بنفس الطريقة اللي انتحرت بها فريدة.. وقبلها لقيتها بتقولي أسم يوسف.. ولما واجهته أنكر.. معقولة كل الحاجات دي صدفة..

انتظر هاني تعقيب الدكتور رشدي .. لكن الأخير طال صمته حتى شك أنه قد سمعه.. لكنه تحدث فجأة وهو يمعن النظر في وجه هاني:

- ومين الصحفي اللي كلمك ده وقالك كل التفاصيل دي؟!

هنا أدرك هاني كم كان غبيًا حين سرد على الدكتور رشدي كل هذه التفاصيل، كان يمكن أن يخبره بعلاقة يوسف بعماد دون الإشارة إلى مصدر المعلومات أو حتى اختلاق أي شيء آخر لكنه الآن حاصره ووضعه في زاوية لا مفر منها ..

- يعني إيه مين الصحفي..؟ ده واحد صاحبي .. عادي يعني

للمرة الثانية يشعر بنظرات الدكتور رشدي تكاد تخترق عقله وتنتزع اعترافًا صريحًا بما يخفي

- صاحبك ده عارف يوسف أوي كده.. وبعدين هو شغال في أي جورنال..؟!

تلعثم هاني وحاول بلع ريقه بصعوبة:

- أنا مش فاهم حضرتك ليه سايب أصل الموضوع وبتكلمني في حاجة تانية.. بقول لحضرتك يوسف وراه حاجة.. وأكيد له علاقة بانتحار فريدة.. لكن أنت سايب كل ده وبتدافع عنه كالعادة.. وعلى العموم لو حضرتك ماتصرفتش أنا بنفسي هروح لحسين الغانم وأحكي له..

انتفض الدكتور رشدي من مكانه وحدجه بازدراء

- تحكي له على إيه.. إنك كنت عاوز تفضحه وبلغت خبر وجود بنته للصحفي صاحبك اللي وقعت بلسانك وحكيت عليه دلوقتي..

حاول هاني أن يقول أي كلمة يدافع به عن نفسه لم يجد ..

- حسك عينك تروح لحسين الغانم ولا تكلمه.. وإلا المرة دي لا يهمني أبوك ولا الدنيا كلها.. فاهم بقول إيه!

وكانت كلمات الدكتور رشدي كافية لصعق كل الخطط الخبيثة التي كان يخطط لها هاني

*****

خرج هاني من غرفة الدكتور رشدي لا يكاد يصدق ما فعله في نفسه.. لقد سلم الدكتور رشدي دليل إدانته بكل سذاجة.. كل ما كان يفكر فيه أنه أخيرًا وجد الطريقة التي سيزيح بها يوسف من طريقه لكنه دون أن يدري أوقع نفسه في ورطة كبيرة..

لكنه لن يستسلم ..

توجه مباشرة لغرفة يوسف..فتح الباب دون استئذان.. وجد يوسف جالسًا على غير عادته على أريكة مكتبه شاردًا.. نظر له يوسف بانزعاج

- إيه دي يا بني آدم انت.. في إيه؟

رمقه هاني في شماته وقال:

- في إيه؟ في إنك اتفضحت ونهايتك قربت.. ومش أي نهاية.. إن شاء الله هتكون حبل المشنقة..

صاح به يوسف في غضب:

- انت بتخرف بتقول إيه ونهاية إيه.. أسمع .. أنا استحملتك كتير علشان العيش والملح اللي كان بينا زمان.. لكن لغاية كده وعندك.. مش هسمح لك

- تسمح ولا ما تسمحش.. وفر كلامك ده وابقى قوله في النيابة لما يستدعوك ويسألوك عن التلميذ بتاعك اللي لقيو عنده راس واحد دبحه..

عقد يوسف حاجبيه في دهشة

- انت بتقول إيه؟ تلميذ اللي بتحكي عنه وراس إيه ونيابة إيه؟ ما تتكلم عدل يا بني انت

- تلميذ ايه! يعني مش عارفه ..الواد اللي اسمه عماد.. أقولك.. ما تستعجلش علي رزقك.. استنى أنت بس لغاية لما يطلبوك في النيابة.. واسمك هينور الجرايد والفضائيات اللي فلقتنا بيها.. سلام يا .. يا دكتور!

كانت كلماته صادمة ليوسف.. كان هاني يتحدث بثقة من لديه معلومات أكيدة وليس مجرد ادعاءات..

عماد من الذي قاله أنه تلميذه!

وما علاقته به؟

فجأة ارتفع رنين هاتفه المحمول .. كان المتصل رقم غير مسجل على هاتفه لكن يبدو من مجموعة الأرقام أنه شخص مهم.. أمسك الهاتف في قلق وتردد قليلًا ثم رد

- ألو..

- أيوه يا دكتور يوسف.. ياريت تيجي لي ضروري.

شعر بقلق بالغ..

- هو مين حضرتك؟

- أنا حسين الغانم .. أنا لقيت المذكرات بتاع فريدة.. في كلام أتوقع مهم تشوفه بنفسك..

*****

نظر الضابط أشرف عفيفي للصحفي عاصم فتحي بتمعن وقال:

- نعمين يا سيدي.. بقى لك ساعة مستني بره علشان تقابلني .. خير..

- خير ياباشا.. هو أنا ييجي من ورايا غير الخير لسعادتك برضو.. ده أنت حبيبي يا باشا والله

قاطعه أشرف بملل

- سمعني يا سيدي

أومأ عاصم برأسه وهو يقول:

- الواد اللي مسكتوه بالراس..اللي أسمه عماد.. عندي لسعادتك معلومة مهمة جدًا ممكن تفيد التحقيق.. هو صحيح أخباره إيه؟

نظر لها باهتمام وقال:

- حولناه العباسية يشوفوا حكايته إيه .. وبعدين أنت جاي تسألني عن أحواله .. اخلص قولي معلومة إيه؟

- معلومة بخصوص واحد إسمه يوسف.. يوسف ياسين

*****

جلست أم هند بجوار ابنتها على السرير.. كانت تقرأ لها بعض القرآن بصوت خافت.. كانوا قد عادوا بها للبيت بعد أن تواصل والدها مع أحد الشيوخ للحضور ومعاينة حالة هند..

سمعت طرقات هادئة على الباب.. همت بالقيام لكن هند أمسكت بذراعها في خوف..

- متخافيش يا حبيبتي .. أنا معاكي مش ماشية..

فتحت الباب لسعيد الغانم ومن وراءه الشيخ .. ليس كسابقه.. هذا أكبر عمرًا يرتدي يبدو في العقد السادس ويرتدي جلبابًا أبيض وذو لحية كثيفة.. دخل مطأطأ الرأس..

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ما أن دخل الغرفة ووقعت عيني هند عليه حتى نظرت له بخوف وانكمشت في مكانها..

نظر لها بتمعن وقال:

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله

التفتت له أمها ملتاعة فأشار لها زوجها كي تبقى هادئة..

بدأت دموع هند تتساقط في صمت وهي تحدق في وجه الرجل..

جلس الرجل في المقعد المقابل للسرير .. وبدأ يقرأ بعض آيات القرآن بصوت مرتفع.. مرت دقائق لم يطرأ أي تغير في ذلك المشهد..

لكن ما لبثت معالم الضيق والامتعاض تظهر على وجه هند.. ثم بدأت فجأة تضحك بهستيريا..

نظر لها والديها في دهشة وهلع.. ليس لضحكها ولكن لذلك الصوت الذي ضحكت به.. لم يكن هذا صوت هند.. كان صوت أجش عميق ومرعب..

لم يتوقف الشيخ.. واستمر في القراءة بصوت أعلى

فجأة تحدثت هند.. تحدث ذلك الصوت الأجش بغضب وحقد:

- لن تاخذوا مني ما صار لي.. طلبت حضوري .. وأنا لبيت طلبها.. هي من دعتني وفتحت لي الأبواب

كادت أم هند أن يغشى عليها من هول ما تسمع.. أمسكت بذراعي زوجها في حسرة

استمر الصوت يضحك بسخرية..

صوت الشيخ بالقراءة يزداد ارتفاعًا..

ملامح هند تزداد شراسة..

التفتت هند لأبيها بعيون لطالما رأى فيها الحنان والحب .. ولأول مرة يرى فيها قسوة وبغض.. شعور اجتاح كيانه برجفة باردة

- هند

صاح بلوعة

نظر له من يسكنها بخبث وقال بفحيح مخيف:

- من فتح الباب لم يعد ليغلقه..

من فتح الباب هو يوسف!

*****

# الفصل التاسع

لم يطل لقاء يوسف بحسين الغانم سوى بضع دقائق .. سلمه فيها المذكرات .. وهو ينظر له نظرة غريبة قائلًا:

- أنا معرفش أنا واثق فيك ليه.. بس ورب الكعبة إذا حصل واكتشفت إنك مش قد الثقة دي لانسفك نسف..

- حضرتك قريتها..

سأله يوسف

- بصيت بصة سريعة.. أغلبها كلام وحكاوي بنات.. بس في حاجات أنا مفهمتهاش.. وقلت يمكن أنت تساعدني

ثم أنهى اللقاء

لم يصبر يوسف حتى يصل إلى مكتبه ليقرأ ما في هذه المذكرات.. كانت لديه أسئلة لا حصر لها ويشعر أنه سيجد كل الأجوبة بين هذه الصفحات..

فتح المذكرات وراح يقرأ..

لم يجد شيء لافت في أغلب الصفحات.. كما قال حسين الغانم.. مواضيع تافهة وقصص عن مقالب بنات وغير ذلك لكن أين ذلك الشيء الذي لم يفهمه ذلك الرجل..؟

كانت فريدة لغز بالنسبة له ولعل مفتاح هذا اللغز يكمن بين هذه السطور..

لكن حتى الآن لاشيء..

كاد ينتهي من تقليب الصفحات حتى توقف فجأة عند جملة غريبة وحيدة تتوسط صفحة ..

"النهارده شفت جدتي.. قالت لي إن جايلها قريب"

تلى ذلك صفحة تتوسطها جملة أكثر غرابة

"النهارده اكتشفت إني مميزة.. بشكل مخيف"

ثم.. جملة أخرى بنفس الطريقة

"كل اللي بشوفه شفته .. كل اللي سمعته سمعته"

"بدأت مرحلة جديدة .. هقدر أعرف كل شيء وأشوف كل حاجة"

ثم جاءت تلك الصفحة والتي اختلفت عن غيرها بأنها الوحيدة التي جاء في أولها تاريخ يوم محدد .. ما أن وقعت يوسف عيني على ما كتب أسفل هذا التاريخ حتى برقت عيناه من هول الصدمة..

"الليلة أول تجربة .. سأفتح عيني التي ترى كل شيء .. وسأحلق بعيدً خارج عن ذلك الطين الفاني"

ردد يوسف الجملة بذهول غير مصدق..

إنه يعرف هذه الجملة تمام المعرفة..

يعرف ماذا تعني بكل حرف من حروفها..

يعرف ولا يحتاج من يخبره بالمزيد..

لأنه هو بنفسه.. يوسف من قالها..

*****

تسللت سلمى بهدوء لغرفة يوسف.. انتهزت فرصة خروج إمها لزيارة قريبة لهم وقررت أن تحسم ذلك الجدل في داخلها.. ما الذي يفعله يوسف بالظبط..؟

الغرفة منظمة كعادتها.. وقفت تفكر من أين تبدأ.. ثم تذكرت تلك الصور التي رأتها في المرة السابقة.. توجهت إلى حيث الكتاب الذي يحتويها..

لحسن الحظ لم يشك يوسف في الأمر وإلا لقام بتغيير مكانها..

الصور موجودة..

للمرة الثانية لم تفهم ماذا كتب على هذه الصور.. تنهدت في يأس ثم تركتها في مكانها ثم أغلقت الكتاب..

فجأة.. انتبهت لعنوان الكتاب.. ثم المؤلف ..

"الخروج من الجسد والعين الثالثة.. الحقيقة الأبدية"

تأليف: ياسين سليمان العارف

أبوها .. أبوها من ألف هذا الكتاب.. ويوسف يحتفظ به.. ويحتفظ بداخله بصور..

لقد فهمت الآن .. يوسف يستكمل ما بدأه أبوهما من قبل..

*****

كان هاني يجلس في انتظار صديقه الدكتور مروان والذي يعمل في مستشفى العباسية .. لم يكن معتادًا على زيارته وقد انقطعت علاقتهما تقريبًا منذ فترة.. لكنه اليوم يحتاجه أكثر من أي وقت مضى..

مروان هو من استلم حالة هاني ولابد أنه قد يكون لديه بعض الإجابات..

دخل مروان المكتب وتفاجأ بهاني..

- هاني كمال بنفسه.. إيه اللي فكرك بيه يا اتش باشا.. ده أنا قلت أنت نستني خلاص من بعد ما اشتغلت مع الدكتور رشدي..

- معلش يا مروان.. هو سؤال سريع محتاج إجابة أسرع.. الواد اللي اسمه عماد اللي جالك ده.. قعدت معاه.. اتكلم معاك قال حاجة...؟

نظر له مروان بدهشة وشك

- وانت بتسأل ليه؟ هو قريبك؟

- لا يا سيدي.. بس محتاج أعرف..

- طيب وأنا مصلحتي إيه أقولك.. دي أسرار شغل يا عم هاني متزعلش مني.. وانت سيد العارفين

زفر هاني بضيق ونفاذ صبر

- انت هتعملهم عليه يا مروان.. خلص قولي عاوز إيه قصاد إجابة سؤالي..

- آه أهو كده بقى الكلام يحلو.. يعني يرضيك يا أنوش صاحبك حبيبك مروان يكون هنا.. وانت هناك مع الدكتور رشدي في مصحة الخمسميت ستار بتاعتكو دي..

- يعني عاوز إيه؟

ابتسم له ومال عليه وقال

- من جاور السعيد يسعد.. تاخدني معاك عندكم في المصحة.. وليك عليه هرفع راسك..

- اتفقنا

اندهش مروان لموافقة هاني بهذه السرعة.. كان يتوقع مرواغات ومناورات أكثر حتى أنه لم يشعر بلذة تحقيق مراده..

- هه خلص.. الواد اتكلم؟

نظر له مروان بفخر

- طبعا يا بيه.. أنا فهمت كل حاجة من أول قعدة؟

- اخلص

- إسقاط نجمي !

قطب هاني حاجبيه بدهشة

- انت هتهرج.. إيه التخريف ده؟!

- أهرج ليه يا عم.. أنا بقولك اللي الواد قاله.. بيقول أنه عمل إسقاط نجمي .. ومن ساعتها وهو مش واعي بالدنيا وبيشوف هلاوس وحاسس إنه ملبوس.. يعني من الآخر عامل فيها عبيط..

صمت هاني يفكر ثم سأل

- مجابش سيرة يوسف..؟

- يوسف مين؟

سأل مروان باستغراب.. ثم عقب

- يوسف بتاعنا؟

- خلاص يا مروان.. كفاية عليك كده

ثم قام هاني لينصرف مسرعا

- طب إيه.. هتكلمي لي الدكتور رشدي ولا هتبعني..

لم يلتف هامي لرامي الذي رمقه بسخرية..

- طول عمرك واد سماوي حقود.. جاي يشتغلني.. هو مفيش غيره يوسف حبيبي اللي هيشقلطني لفوق.. وخصوصًا لما يعرف الواد قال إيه..

وابتسم لنفسه بفخر..

- حبيبي يا عماد يا وش السعد..

ثم خرج يدندن متوجها لغرفة عماد.. راح يتخيل نفسه في مكتب أنيق بمصحة الدكتور رشدي.. لقد خدمته الصدفة بأكثر مما كان يحلم..

انقشع المكتب الجميل من مخيلته فجأة على صوت صياح أحد الممرضين..

- الحق يا دكتور.. الواد اللي جابوه امبارح موت نفسه..

هرع مراون نحو غرفة عماد.. كيف له أن ينتحر قبل أن يحقق مراده؟

كيف تمكن من فعل ذلك؟

كان المشهد مروعًا لأقصى درجة..

عماد ملقى على جانبه.. وقد قضم رسغه بوحشية وتقطعت شرايين يده ونزف حتى الموت وخلف لهم جثته ورائحة الدم التي تزكم الأنوف

*****

لا يدري يوسف كم مر من الوقت وهو يسير في شوارع القاهرة المزدحمة .. كان يقود سيارته بلا غاية.. لقد أدرك أن السبب فيما حدث لفريدة.. ولابد أن هند هي كذلك تعاني بسببه.. والأخطر أنها قد تصل لنفس النهاية... وهو المسؤول عن كل هذا.

لم يكن يتخيل أن تصير الأمور لهذه النهاية.. لقد كان كل شيء يسير وفق التصور الذي وضعه منذ البداية.. كان يعلم أنه هناك تحذيرات ومخاوف لكن لم يؤمن أنها قابلة للحدوث حقًا..

أخيرًا انتهى به المطاف أمام بيته.. كان يشعر بانكسار وأنه يتعرض للانهيار من الداخل..

دخل البيت فإذا بسلمى تجلس.. كانت مترقبة لوصوله..

لم ينطق بكلمة.. وتوجه لغرفته كأنه لا يراها..

- يوسف..!

صاحت به فتوقف ولم يلتفت ولم يتكلم

- أنا عرفت كل حاجة..

لم يعطها أي رد فعل..

- عرفت إنك كنت بتحاول تكمل اللي كان بيعملوا بابا زمان.. بتحاول تكرر نفس الحاجة اللي ضيعته وخلت كل الناس يتهموه إنه مجنون لغاية ما مات بحسرته .. ليه يا يوسف.. ليه... دخلت كلية الطب وأصريت تتخصص في الطب النفسي زي بابا..

ماما محبتش تمنعك.. قالت بتحب الطب النفسي بسبب بابا وخلاص.. لكن أنت كنت في دماغك حاجة تانية.. كنت بتبرر تأخيرك في رسالة الماجستير إنك مش لاقي حالة .. وأنت كنت بتدور على حالة تثبت بها اللي بابا مقدرش يثبته..

يوسف رد عليه.. اللي بقوله صح ولا لا..

أخيرً التفت إليها ونظر له بثبات

- أيوه صح.. كل اللي قلتيه صح .. وكل اللي بابا كان بيقوله صح .. العين التالتة حقيقة .. البشر عندهم قدراتهم لا محدودة .. البشر يقدروا يعملوا حاجات فوق مستوى خيالك وتفكيرك... بس محتاجين اللي يعرفهم ده ويوريهم الطريق.. بابا كان عاوز يخدم بلده ويعمل نفس اللي حصل في الاتحاد السوفيتي زمان.. قدروا

يعملوا ده.. قدروا يلاقوا بشر عندهم قدرات فوق حسية محدش كان ممكن يصدق إنها ممكن تحصل.. ولما حاول يعمل ده هنا حصل إيه.. اتهموا بالجنون ومنعوه يكمل أبحاثه رغم أنه قدم لهم أكتر من دليل..

ولما فكر ينشر كل اللي وصلوه واللي مؤمن به في كتاب.. اتمنع من النشر.. والنتيجة إيه.. الكل تخلى عنه.. حتى تلامذته.. نسيوا هو كان بيعمل معاهم إيه.. محدش شال جميله غير الدكتور رشدي .. عاوزاني بقى بعد كل ده أعمل إيه.. محاولش أوري الدنيا كلها إن أبويا كان صح.. أنهم كلهم غلط وهو بس اللي كان صح.. كنت هحط كل ده في رسالتي اللي هناقشها في نفس المكان اللي هو وقف في قبل كده.. كنت هتكلم قدام العالم كله علشان يعرفوا الحقيقة..

نظرت له بحزن وشفقة

- ومين قالك إن العالم مهتم.. يعرف الحقيقة..

التزم الصمت فاستطردت

- ويا ترى قدرت تثبت حاجة؟

أجاب بانفعال:

- كنت خلاص قربت.. قربت ألاقي حالات فعلًا ممكن تكون زي الحالات اللي بابا لقاها زمان وكتب عنها في كتابه .. لكن ..

وبتر جملته المتوترة ولم يكمل

- لكن إيه؟

- أنا عملت نفس اللي بابا قاله لي وعلمه لي.. قعدت سنين بستعد لغاية ما بقيت جاهز .. اختارت طريقة تضمن إن ما يكونش في احتكاك مباشر بيني وبين الناس.. الناس بتحب الغموض..

حدقت في وجه بدهشة ثم قالت:

- إيه ده اللي بابا علمهولك؟

نظر لها بتردد ثم حسم أمر سريعًا..

- أيوه بابا كان بيعلمني وبيحكي لي.. وعملنا محاولات كتير مع بعض.. لكن فجأة بقى يخاف عليه.. ومخلانيش أكمل

التقط كوب ماء كان أمامها.. شربه دفعة واحدة ثم واصل

- أنا بقى قررت أكمل مع نفسي .. عملت جروب سري على الفيسبوك ..وكنت بعمل بث مباشر من غير ما أظهر ولا صوتي يكون واضح والغريب إن الناس عجبها ده .. بدأت أدرب الناس اللي على الصفحة واحدة واحدة .. لغاية ما قدرت أرتب جلسات إسقاط نجمي لأشخاص مش بيعرفوا بعض ولا يعرفوني.. وكنت منتظر تظهر حالة تثبت اللي كنا بندور عليه أنا وبابا .. لغاية قريب مكنش فيه حاجة قوية.. بس واضح إن كان فيه حد عنده قدرات فعلًا هو نفسه مكنش حاسس بيها.. النهارده بنفسي اتأكدت من ده..

- واتأكدت إزاي؟

- من مذكرات حالة معينة.. المذكرات دي بتاع بنت كاتبة فيها نفس الكلام اللي كنت بقوله في الجلسات.. وفي نفس التاريخ..

سألته باهتمام:

- والحالة دي فين؟

صمت ولم يجيب.. نظرت له بقلق.

- الحالة دي فين يا يوسف؟

- انتحرت!

شهقت سلمى وهي تنظر له بهلع.. وهو يواصل

- والمشكلة إن في حالة بنت تانية عندها نفس الأعراض.. وكان عرفت بالصدفة إنها قريبة البنت اللي انتحرت..

- أوعى تقولي هي كمان انتحرت!

صاحت سلمى برعب.. فتابع بتوتر

- لا.. بس ممكن.. أنا معرفش .. كل اللي أنا عارفه إن في حاجة خطيرة حصلت.. حاجة كان بابا حذر منها في الكتاب .. حاجة مخيفة مكنتش مصدق إنها ممكن تحصل بجد..

- إيه الحاجة دي؟

سألته بقلق بالغ

- استحواذ روحي.. يعني كيان خبيث يستحوذ على الجسد ..

- أنا مش فاهمة

- الإسقاط النجمي بيحصل فيه خروج للجسم الأثيري من الجسم المادي .. وبتكون دي بداية اكتشاف الحقيقة والمجهول .. لكن الجسم المادي بيكون في خطر حدوث استحواذ روحي

سألت بخوف:

- يعني لبس؟!

- أيوه.. أو المس اللي الناس بتقول عليه

صاحت معترضة:

- مفيش دليل علمي إن الإسقاط النجمي ده حقيقة .. وحتى في ناس بيقولوا حرام.. أنت إزاي كنت متخيل إن رسالتك دي هتتقبل أصلًا

- كان هيبقى فيه.. ورسالتي كانت أكيد هتتقبل لما ألاقي الحالة .. الحالة اللي تثبت كل اللي قاله بابا زمان واتهموه بسببه بالجنون لغاية ما ..

وبتر جملته وأشاح بوجه بعيدًا

كانت تستمع غير مصدقة أن كل هذا يحدث من أخيها.. كان يتحدث بانفعال جارف ويلوح بيديه هنا وهناك.. كيف تحمل كل هذا العذاب والصراع النفسي لإثبات براءة أبيهم من الجنون.. كان هو الأقرب له بحكم أنه الأكبر سنا .. وعندما انتحر .. كان ذلك على مرأى ومسمع منه.. دخل عليه فوجده يضع فوهة مسدس في فمه ثم أطلق النار بينما ينظر إليه..

أصيب يوسف بعدها بأزمة نفسية حادة كادت تعصف به .. لولا وجود أمه بجواره .. ومرت السنين وظن الجميع أنه قد تعافى من هذه الذكرى الأليمة.. بيد أن ما تراه أمامها يثبت أنه لم يتعافى قط.. بل كان يتظاهر بذلك ..لكن هل كل ذلك يبرر ما فعله.. لقد تسبب في انتحار فتاة مسكينة بينما الأخرى قد تواجه نفس المصير..

- لازم تنقذ البنت التانية يا يوسف...

كانت تحدثه بلهجة آمرة حاسمة..

فجأة سمعا طرقًا شديدًا على الباب..

انخلع قلب سلمى وهي تنظر للباب .. شعر يوسف أن هناك فاجعة جديدة في انتظاره..

توجه نحو الباب في بطء .. نظر عبر العين السحرية.. تعجب مما يرى.. لكنه فتح الباب متسائلًا

على الباب ضابط المباحث أشرف عفيفي

- أنت الدكتور يوسف ياسين؟!

نظر له بقلق وأجاب

- أيوه أنا..

- طيب اتفضل معانا..

صرخت سلمى:

- عاوزينه في إيه؟

- ياريت تتفضل معانا في هدوء .. هنتكلم شوية وهتعرف كل حاجة

نظر يوسف لأخته ثم ربت على كتفها

- ماتجيبيش سيرة لماما لغاية ما أرجع.

وذهب معهم وقلبها يعتصره الحسرة والخوف وسؤال واحد .. هل حقًا سيرجع؟

أم سيكون رحيل بلا عودة .. مثلما رحل أبيها!

*****

# الفصل العاشر

رن جرس الهاتف في مكتب الدكتور رشدي الذي كان يشاهد الحلقة التي سجلها لأحد القنوات الفضائية.. لم يهتم بالرد لكن رنات الهاتف أبت إلا أن تعكر مزاجه وإعجابه بإطلالته على التلفزيون..

نظر في الهاتف.. سريعًا أخرس التلفاز ثم رد:

- حسين باشا.. أهلًا أهلًا.. طمني على سعادتك.. إيه .. لا لسه معرفتوش بس اطم..

بتر جملته فجأة:

- يا باشا وليه هخبي بس.. طب إسمعني .. إسمعني .. المرحومة فريدة دلوقتي ارتاحت والحكاية عدت.. يعني مفيش داعي ندور وندقق..

أبعد الهاتف عن أذنه بضجر ثم تابع:

- طيب سعادتك ليه مكلمتش علي محفوظ تسأله.. اه رافض .. طبعًا ما هو بقى مسنود دلوقتي بعد ما الباشا بتاعه اشترى الجرنال..

صمت يستمع.. تغيرت ملامحه تمامًا.. لم يكن ما يسمعه مريح أبدًا..

- طيب إديني مهلة بس.. مهلة يوم واحد وهجيبلك إسم اللي كلم الصحفي ده.. أنا بنفسي هكلمك..

أنهى المكالمة وحك ذقنه في تبرم..

- حسين الغانم وقرف حسين الغانم.. مش هيسكت غير لما يطربقها.. شكلك هتروح فيها يا هاني زفت

أمسك هاتفه المحمول مرة ثانية.. بحث عن رقم يوسف

استمع لصوت الرنين في ضيق.. لم يرد

كرر الاتصال..

حين يأس اتصل عبر الهاتف الداخلي:

- فين دكتور يوسف.. يعني إيه لسه مجاش.. طيب طيب.. لو جه حد يبلغه يجيلي علطول..

عاد ليجري مكالمة أخرى .. هذه المرة بهاني .. لم يرد هو الآخر .. قبل أن يحاول ثانية فوجئ به يدخل مكتبه..

رمقه بغضب لم يكترث له هاني الذي بادره :

- شفت اللي حصل.. حبيبك اللي قاعد تدافع عنه طول الوقت..

- حبيبي! اتكلم بأدب يا بني آدم.. إيه اللي حصل بالظبط؟

اقترب من مكتبه ونظر له بسخرية:

- أبدًا.. حاجة بسيطة خالص.. اتقبض عليه امبارح ومبيت في القسم بيحققوا معاه

انتفض الدكتور رشدي

- أنت بتقول إيه؟ قبضوا عليه ليه..

جلس هاني على المقعد المقابل لمكتب الدكتور رشدي ووضع ساق فوق الأخرى

- والله المعلومات اللي عندي إنه اتقبض عليه ولسه بيحققوا معاه.. إيه التهمة بقى بالظبط لسه.. بس خدها مني.. مش هتقل عن تحريض على القتل!

- قتل!

رددها الدكتور رشدي بذهول

طرق على الباب ثم دخول شخص آخر تبدو عليه ملامحه الانزعاج الشديد والإرهاق

التفتا ناحيته فقام هاني من مكانه مرحبا

- أهلا أستاذ سعيد.. طمني إيه أخبار هند..

نظر له بحرقة

- هند في مصيبة.. مصيبة ممكن تقضي عليها.. وواحد بس هو اللي ممكن يساعدها

- مين ده؟

سأل هاني بدهشة.. فجاءه رده المباشر

- دكتور يوسف!

أجابه الدكتور رشدي بتوتر

- للأسف ده مش ممكن..

- ليه مش ممكن؟ هو فين؟

تبادل الدكتور رشدي النظرات مع هاني ثم قال الأخير:

- الدكتور يوسف اتقبض عليه.. تحريض على القتل!

رمقه الدكتور رشدي بغضب ثم عقب بسرعة:

- لسه مش عارفين إيه الموضوع.. بس أكيد في حاجة غلط وهيطلع..

- طب وبنتي!

لم يدري الدكتور رشدي كيف يجيبه لكن هاني وجدها فرصة للإجهاز على يوسف بشكل كامل:

- اطمن يا أستاذ سعيد.. أنا هتابع حالتها بنفسي.. لكن الدكتور يوسف منصحكش تخاطر معاه حتى لو خرج.. لأنه هو نفسه اتسبب في انتحار بنت قبل كده اسمها فريدة..

نظر له الرجل في هلع

- فريدة مين؟ فريدة حسين الغانم ..

استطرد هاني:

- أبوها راجل تقيل أوي وطبعا هو كمان مش ناوي يسيب تار بنته

- هاني!

صاح الدكتور رشدي بغضب.. نظر له هاني بسخرية.. ثم انحنى بطريقة مسرحية ساخرة وكأنه يفسح له المجال.. ثم أومأ برأسه لسعيد الغانم ثم انصرف.. لقد فعل ما يريد.. وأكثر!

*****

ولأول مرة منذ سنوات يشعر بهذه النشوة.. أخيرًا انتهى ذلك اليوسف.. لم يعد له وجود.. وإن عاد فلن يكون أبدًا مثلما كان من قبل..

كان يقود سيارته متأخرًا على الطريق الدائري عائدا لمنزله..

- والله أنا عبقري..

ثم ضحك فجأة بقوة..

- أدفع عمري وأشوف سي يوسف بالبدلة الزرقا.. والله تليق عليه..

فجأة ارتجت سيارته بعنف ومالت بشدة وكادت تنحرف ويفقد السيطرة عليها...

التفت بغضب ناحية تلك السيارة النقل التي ظهرت فجأة عن يمينه..

فتح نافذة الباب المقابل له وأطلق سيل من السباب ..

نظر له السائق هناك ببرود وسخرية .. ثم قبل أن يدرك هاني ما الذي يحدث انحرف ناحيته سائق النقل بسيارته ليصدم سيارته بعنف..

هذه المرة لم يتمكن من السيطرة عليها...

دارت السيارة حولها نفسها بسرعة.. ثم اندفعت ناحية السور الجانبي واصطدمت به بقوة ثم تعبره لتهوي بعيدًا..

ألقى سائق النقل نظرة عابرة في المرأة.. سيارة هاني تشتعل من وراءه بالأسفل..

التقط هاتفه ثم اتصل بأحد الأرقام وقال جملة واحدة

- تم يا باشا!

*****

وصل حسين الغانم مكتبه مبكرًا كعادته..

لحق به رامي..

- في جديد يا رامي..؟

- أبدًا سعادتك.. سمعت سعادتك عن خبر الصحفي الي انتحر عند علي محفوظ..

قال رامي بتأثر

تصنع حسين الغانم الدهشة..

- يا ساتر .. انتحر.. ليه..

- محدش عارف.. كل اللي اتقال انه رمى نفسه من بلكونة شقته..

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. عارف يا رامي.. أهو اللي ينتحر ده بيموت كافر..

ثم مط شفتيه كمن يستعد لإلقاء موعظة:

- أنا مثًلا.. بنتي الله يرحمها ماتت.. عملت ايه... صبرت.. ورضيت بقضا ربنا.. يلا هنقول إيه.. اطلب لي قهوة يا رامي..

- بفكر سعادتك بس إن النهارده ميعاد الحلقة بتاع البرنامج اللي هيتسضيف سعادتك..

- أه صحيح ..طب بص يا رامي.. شوف لي كده شوية أرقام عن الحوادث والناس اللي بتموت علي الطرق خليني أقول كلمتين حلوين في البرنامج اللي طالع فيه الليلة..

*****

كان يدرك أن ذلك يحدث من جديد.. حتى أنه يعرف كل التفاصيل التي ستمر به قبل وقوعها.. ستمر الآن سيارة سوداء اللون مسرعة فيرتبك جارهم العجوز الذي كان يهم بعبور الشارع مع حفيدته ويرتد جاذبا البنت من يدها بسرعة..

إنه يحلم .. ويعرف أنه يحلم ..

يتحرك في حلمه كمن يلعب لعبة إلكترونية .. يري المشاهد من حوله .. لكنه نفسه.. لا يرى منها سوى قدميه بحذائه الذي اشتراه له أبوه الأسبوع الماضي..

هناك أوراق شجر تتطاير..

يطأ تلك التي فرشت الممر مستسلمة أمامه في حديقتهم وصولًا لسلم البيت..

يسمع صوت تحطم الأوراق الجافة أسفل قدميه...

يتلذذ بذلك الشعور الخفي بالسادية

باب البيت مفتوح.. يستعجب من ذلك.. لكنه يتذكر أنه يعرف من بالداخل وما الذي سيحدث بعدها..

يرى قدماه تهرول بالداخل من غرفة لغرفة.. لابد أن أمه لم تأت بأخته بعد من المدرسة..

تمشي خطواته بهدوء هذه المرة نحو غرفته.. غرفة أبيه..

يطرق الباب بأدب.. الباب مفتوح ودفعته الطرقات الخفيفة ليفسح المجال ليرى المشهد كامل..

إنه أبيه هناك .. ممسكًا بمسدس يدخله في فهمه..

يعرف ماذا يحدث..

لابد أن يمنعه هذه المرة .. كل مرة يفشل في ذلك لكنه الآن سيفعلها.. لابد أن يمنعه من ذلك ..

يريد أن يجري نحوه.. تأبى قدماه إلا أن تتحركان ببطء.. أحدهم يتعمد منعه من إنقاذ أبيه..

ينظر له.. تلتقي أعينهما للحظة .. يراه أصبعه يرتعش ليضغط الزناد..

قدماه اللعينتان تحجرتا لا تتحركا..

ثم .. تصم أذناه صوت رصاصة.. انطلق لتخترق رأسه أبيه وتفجر موخرة جمجته..

صرخ .. صرخته حبيسة.. قدماه يابستان.. ثم يستيقظ.. هكذا يجب أن يحدث لكن.. لم يفعل.. هذه المرة لم يفعل.. لم يستيقظ..

حلمه استمر.. تعجب من ذلك..

هل هناك جزء جديد لحلمه .. لازال يدرك أنه يحلم.. لكنه الآن لا يعلم مالذي سيحدث..

نظر نحو السلم المؤدي للدور العلوي..

هرول صاعدًا.. لايدري لماذا هرول.. لكنه فعل ذلك

هاهي أخته تقف أمام المرأة وأمه تمشط لها شعرها.. لا تشعران به.. ينادي عليهما..

التفتتا.. يشهق رعبا

ليست هاتان أمه وأخته..

من ظنها أمه هي فريدة.. تنظر له على هيئتها بعد موتها كما رآها في تلك الصور مع فايزة..

والصغيرة هي هند..

كلتاهما تحدقان فيه بقسوة.. خرج يركض من الغرفة..

نزل الدرج مسرعًا..

توقف لينظر نحو أبيه مرة أخري.. لم يعد هناك.. لكن كان هناك شابين.. أحدهما يرقد أمام الآخر في استسلام بينما يهم بذبحه..

تقهقر للوراء..

كيف يستيقظ من هذا الكابوس المخيف.. لقد كان كل مرة يتوقف عند مشهد انتحار أبيه.. لكن الآن أصبح مثل المتاهة التي ليس لها مخرج..

تبدل المشهد أمامه واختلفت معالم البيت.. لم يصبح هناك سوى حفرة عميقة ضيقة .. يعلوها بعيدًا تطل برأسها فتحة يتسلل منها بعض الضوء..

لابد أن يتسلق

الحائط بارد كالثلج.. ارتد عنه بهلع محدقا فيه.. لكن ليس من سبيل للخروج سوى هذه الفتحة..

حاول من جديد

انسل شيء ما خارجًا من الجدار.. كيان أسود راح يتعاظم أمام عينيه .. تعاظم وتعاظم حتى كاد يحجب تلك الفتحة..

*****

- ما تقوم يا عم الدكتور..

فتح يوسف عينيه واندفع جالسًا من نومه ..

- إيه نفس الكابوس اللي ماسكك من كام شهر..

نظر يوسف حوله غير مستوعب أين هو..

- أنا فين؟

- يا لهووووي.. يا عم ركز معايا امال.. أنت كل ماتنام وتصحى مكابوس تقولي إحنا فين .. هو مين فينا الدكتور.. ماشي.. نقول كمان .. أنت في سجن أبو زعبل يا دكترة.. بقى لك هنا شهرين يا دكترة..وأنا أخوك وصاحبك الألماني الأصلي..

بدأ يوسف يستدرك ويستوعب أين هو..

لقد حُكم عليه بالسجن ..

قضيته تحولت لقضية رأي عام

حولها حسين الغانم لحديث الساعة في كل الفضائيات.. لم يتحدث أبدًا عن ابنته... بل كان يستغل سعيد الغانم بعد انتحار هند هي الآخري.. وجد في ذلك ضالته للانتقام منه..

حاول استئناف الحكم.. لكن الحشد الذي قام به حسين الغانم لم يدع له مجالًا من التعذر أو التبرير..

لم يفلح الدفاع سوى في تخفيف الحكم..

أمه لم تتحمل الخبر فجاءه خبر وفاتها بعد أسبوعين من سجنه

سارة موقفها منه حتى الآن مبهم.. حضرت معه المحاكمة ثم لم يراها منذ حينها

سمع بوفاة هاني.. وحزن رغم كل شيء لرحيله..

لكن بقى السؤال حائرًا في عقله..

هل هو حقًا من تسبب في كل هذا الموت..؟

هل يستحق أن يكون هنا؟ أم أنه هو نفسه ضحية؟

لكن..مالذي يعنيه من وراء كل هذا التفكير .. فكيفما كانت الإجابة عن كل هذه التساؤلات..

لقد انتهى كل شيء.. أو هكذا يبدو..

*****

كانت وحدها..

في سريرها ترقد..

تحدق في سقف الغرفة..

تراه ذلك الكيان ينسل خارجًا..

ينتشر في السقف فيكسوه ظلامًا..

ثم ينسدل على الجدران..

الشلل يكبل أطرافها..

انحبست كلماتها وأناتها..

فقط نظرت.. هناك على الحائط..

السواد يتسلل.. فوق صورة هناك معلقة..

ليغطيها شيئًا فشيئًا..

صورتها هي ..

مع أخيها.. يوسف!

"تمت بحمد الله"

في الحادية عشر مساءًا من ليلة

١٤ نوفمبر ٢٠١٩